رواية

ويلّا كاذر

عدوّي الحميم

ترجمها عن الإنكليزية: يزن الحاج



المتوسط

مكتبة | 818
سُر مَن قرأ

عدوّى الحميم



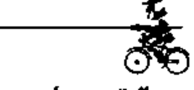
My Mortal Enemy *by* "Willa Cather 1926"

المؤلف: ويلّا كاذر / المترجم: يزن الحاج / عنوان الكتاب: عدوّي الحميم

الطبعة الأولى: 2019.

تصميم الغلاف والإخراج الفني: الناصري

ISBN: 978-88-32201-29-1



منشورات المتوسط

ميلانو / إيطاليا / العنوان البريدي:

Alzaia Naviglio Pavese. 120/ 20142 Milano / Italia

العراق / بغداد / شارع المتنبي / محلة جديد حسن باشا / ص.ب 55204.

www.almutawassit.org / info@almutawassit.org

ويلّا كاذر



ترجمها عن الإنكليزية: **يزن الحاج**

مكتبة | 818

سُر مَن قرأ

المتوسط



إشارة المترجم



ما من سبب معروف لتجاهل ويلاّ كاذر، وهذه مأساة. استُعيدت ويلاّ كاذر أخيرًا لفترة موقّتة، وتلك مأساة أكبر، لأنّ الاستعادة كانت لأسباب خاطئة. تندرج كاذر، لدى دوائر النّقد السائد، ضمن أدباء أميركا في نهاية القرن التاسع عشر، وبداية القرن العشرين، مع ستيڤن كرين، وكيت شوپان، وأحيانًا مع إيدث وورتن، مع أنّ كاذر متقدّمة عنهم زمنيًا، وأعمالها أنضج من معظم أعمالهم بدرجات. في حقيقة الأمر، لا بدّ من إدراج كاذر مع فوكنر وهمنگوي وفتزجيرلد، زمنيًا وحتّى أدبيًا، برغم الفوارق التي تسم أدب كلٍّ منهم. صحيح، أنّ كاذر تسبقهم، من حيث الولادة، بعشرين سنة على الأقلّ، إلا أنّها لم تبدأ بنشر الروايات إلا في سنّ الثامنة والثلاثين، ما جعلها معاصرةً لهم، وإنْ تكن أكبر سنًا. وستتيح لنا القراءة المتمعّنة لأعمالهم إدراك القواسم المشتركة الكبيرة بينهم، بل حتّى تأثّر الثلاثيّ فوكنر، وهمنگوي، وفتزجيرلد بأدب كاذر، ومن ثمّ تأثّرها بفوكنر، على الأخصّ في أعمالها الأخيرة.

وحين استُعيدت كاذر منذ السّبعينيّات، ولو على نحوٍ ضئيل، يتزايد ببطء، أُدرجت مرّةً أخرى ضمن تصنيف خاطئ على يد النّاقدات النسويّات ودُور النّشر المختصّة بأدب المرأة. اللافت هنا أنّ كاذر استُعيدت بسبب عنصر لا يمكن لنا عَدّه شديد الوضوح في أعمالها،

حتّى لو لوينا عنق التأويل. أعني عنصر المِثْليّة الذي عَدّته الناقدات النسويّات سمةً بارزةً في أدب كاذر وحياتها، مع أنّ الواقع يقول إنّ مِثْلِيّة كاذر مرتبطةٌ بتأويلات أكثر من كونها حقائق فعليّة. وحتّى لو افترضنا صحّة الأمر، لم يكن لـ "مِثْلِيَّتِهَا" إسهام بارز في أدبها، بل سنظلم أعمالها لو اختزلناها إلى وجهة النظر الضيّقة هذه. صحيح أنّ توصيفها للشخصيّات النسائيّة من بطلاتها شديد الروعة، وأقرب إلى الحميميّة أحيانًا، ولكنّ هذه ليست تهمة، بقدر ما هي إقرارٌ بإحساس كاذر العالي تجاه اللغة، وتجاه سيكولوجيا الأنثى. وإنْ أضفنا إصرارها الشديد على عدم نشر رسائلها الشخصيّة (وتلك رغبة لم تُحترَم في نهاية المطاف)، إلا أنّ بإمكاننا ردّ هذا القرار إلى رغبةٍ شخصيّةٍ بالفصل بين الشخصيّ والإبداعيّ، أكثر من كونه محاولة لإخفاء "سرّ" يتّصل بحياتها الشخصيّة والجنسيّة.

في الأحوال جميعها، لا أميل شخصيًا إلى هذه التصنيفات، ولا أظنّها تقدّم الكثير حتّى في تأويل أعمالها. وإنّ دافع اهتمامي بأدب كاذر جماليٌّ محض، لأنّها تستحق مكانًا بارزًا عربيًا، ولحسن الحظّ أنّ الاهتمام بأعمال كاذر، حتّى لدى القرّاء والنّقّاد في أميركا، ما يزال يشقّ طريقه ببطء، بحيث ستُطرَح أعمالها بالعربيّة تباعًا، بالتّزامن تقريبًا مع تزايد الاهتمام بها أميركًا. نبدو هنا وكأنّنا أمام كاتبة معاصرة، وهذا صحيح بالنسبة إلى معظم أعمالها، إذ لا تفقد ألقها مع السنوات، بل تتجدّد حيويتها مع كلّ قراءة جديدة، مثل أيّ عمل عظيم. إذنْ، ستكون هذه النوفيلا انطلاقةً لترجمة أعمال كاذر كلّها، كما أتمنّى، إذ أعدّه مشروعًا شخصيًا، يستحقّ التّفرّغ، بخاصّة أنّ أعمالها لم تُترجَم، باستثناء ترجمة الراحلة سهير القلماوي لرواية "غاليتي أنتونيا" أو "أنتونياي" My Ántonia (تُرجمت بعنوان "عزيزتي

أنتونيا" في الخمسينيّات، ونفدت الترجمة، وتلاشت، ولم أعلم بشأنها إلا مصادفة)، وعدّة قصص قصيرة متفرّقة.

"عدوّي الحميم" أقصر روايات كاذر، وهناك قصص قصيرة لها أطول منها، ولكنّها أفضل مقدّمة لأعمالها، كما أعتقد. هنا بلغت كاذر درجةً عاليةً من الإتقان والبراعة والحساسيّة اللغويّة، تفتقر إليها معظم أعمالها الأولى، بما فيها ثلاثيّتها الروائيّة الأشهر "ثلاثيّة السهول الكبرى". لا نجد هنا جغرافيا كاذر المعتادة، أي نبراسكا وباقي ولايات السهول الكبرى الأميركيّة، بل ننتقل إلى نيويورك، ونتلمّس اختلاف المُدُن الكبرى عن المُدُن والبلدات الصغيرة. لا يزال للطبيعة حضورٌ بارزٌ (فهذه إحدى مزايا أدبها المذهلة)، ولكنّ التركيز صار جوّانيًا، سيكولوجيًا، أكثر من كونه ظاهريًا. نبدو هنا، في بعض فصول الرواية، وكأنّنا نقرأ أناشيد قصيدة مَلحميّة، حيث التراجيديا والآلهة والصّراع، مع أنّ المكان والزمان ثابتان. نقرأ في "عدوّي الحميم" تراجيديا وورومانس في آن (كما تشير الروائيّة والنّاقدة البريطانيّة أ. س. بيات)، وإنْ أضفنا اللمسة الشعريّة الشّفيفة غير المفرطة، سنكون أمام إحدى أعذب روايات الأدب الأميركيّ الذي لم يُقدَّم عربيًا كما يستحقّ.

لا أميل إلى كشف الحدّوتة عند حديثي عن الرواية، احترامًا لرغبة قسم كبير من القرّاء الذين يفقدون متعة القراءة، لو عرفوا الحبكة، مع أنّني أعدّ الحدّوتة والحبكة عنصرَيْن غير محوريَّيْن في أيّ رواية عظيمة. كلُّ ما أريد الإشارة إليه هو أنّ كلمة "الحميم" في العنوان هي أقصى ما يمكن للّغة العربيّة أن تقدّمه لنقل كلمة "mortal" (العنوان الكامل My Mortal Enemy)، إذ لا تملك اللغة العربيّة التّنوّع الذي تحمله

الإنكليزيّة في هذه المفردة تحديدًا. ففي الإنكليزيّة تتّسع دلالات المفردة، لتشمل معانٍ متناقضة أحيانًا: قاتل، مميت، لدود؛ وكذلك قد تعني: فاني؛ وعنوان الرواية يحتمل معنَيَي "الحميم" و"الفاني" في آن، ولكنّني اكتفيتُ بـ"الحميم"، بحيث تبقى الدلالات الأخرى ضمنيّةً. كما أنّ اختيار اسم راوية الأحداث هنا، "نيلي بيردزآي" حركة بارعة من كاذر، فمعنى "بيردزآي" (Birdseye) هو "عين الطائر"، حيث نبدو وكأنّنا نشاهد فيلمًا سينمائيًا من أعلى، مُلمّين بالتفاصيل كلّها.


عدوي
الحكيم

القسم الأوّل

1



لقيتُ مايرا هنشوه للمرّة الأولى حين كنتُ في الخامسة عشرة، ولكن كنتُ أعرف عنها منذ أقصى ما بوسع ذاكرتي أن تعي. كانت هي وزواجها الخطيفة محور أكثر القصص إثارةً، بالأحرى القصّة المثيرة الوحيدة، التي تتناقلها عائلتي، في العطلات أو في العشاءات العائليّة. ما تزال أمّي وخالتي تعرفان أخبارًا عن مايرا درسكول، كما يدعوانها، وتسافر الخالة ليديا إلى نيويورك أحيانًا كي تزورها. كانت هي الشخصيّة الباهرة والجذّابة بين صديقات طفولتهما، وكانت حياتها مثيرةً ومتنوّعةً، فيما كانت حياتنا رتيبة.

ومع أنّها ترعرعت في بلدتنا، پارثيا، جنوب إلينوي، إلا أنّ مايرا هنشوه لم تعد إلى البلدة منذ هروبها للزواج، إلا مرّةً وحيدة. كان هذا في السنة التي أنهيتُ فيها المدرسة الثانويّة، ولا بدّ أنّها كانت في الخامسة والأربعين آنذاك. أتت في بداية الخريف، بعد أن أبرقت رسالةً موجزةً عبر التلگراف. كان زوجها، الذي يشغل منصبًا في مكاتب نيويورك التابعة لشركة سكّة حديد شرقيّة، سيأتي غربًا من أجل عمل ما، وكانا سيتوقّفان ليومَيْن في پارثيا. سيقيم في الپارثيان، كما كان يُسمّى فندقنا الوحيد، فيما ستقيم السّيّدة هنشوه عند الخالة ليديا.

كنتُ المفضّلةَ عند خالتي ليديا. لديها ثلاثة أبناء كبار، ولكنّها لم

تُجِب بنات، وكانت تعتقد أنّ أمّي لا تقدّر نعمة وجودي. ولذا كانت على الدوام تمنحني ما تسمّيها "فرصًا" على البيعة. دُعيَت أمّي وأختي لتناول العشاء في بيت الخالة ليديا في ليلة وصول آل هنشوه، ولكنّها همست لي: "أريد منكِ أن تأتي في وقت مبكّر، قبل ساعة أو أكثر من وصول الآخرين، لتتعرّفي إلى مايرا."

في تلك الأُمسيّة انسللتُ بهدوء من باب بيت الخالة الأماميّ، وفيما كانتُ أخلع معطفي ووشاحي في الصالة، لمحتُ، في أقصى نهاية غرفة الجلوس، امرأةً قصيرةً ريّانة الجسد، ترتدي فستانًا من المخمل الأسود، تجلس على الصوفا، وتعزف بِرقّةٍ على گيتار ابن خالتي بيرت. لا بدّ أنّها سمعتني حين دخلتُ، فرفعت عينَيْها، ورأت انعكاسي في المرآة؛ أزاحت الگيتار من بين يَدَيْهَا، ونهضتْ، ووقفتْ تنتظر اقترابي. كانت تقف ساكنةً بكل وضوح وتركيز، وقد شدّت كتفَيْها، ورفعت رأسها، كما لو أنّها تُذكّرني بأنّ من واجبي الاقتراب منها بأقصى سرعة، لأقدّم نفسي إليها بأفضل ما بإمكاني. لم أكن معتادةً على أيّ نوع من أنواع التعامل الرسميّ، ولكنّها نجحت عبر موقفها ذاك في إيصال هذه الفكرة إليّ.

تعجّلتُ في خطواتي عبر الغرفة، وارتسم ارتباكٌ وقلقٌ كبيران في وجهي، بحيث أطلقتْ ضحكةً قصيرةً مترفّقةً بي، وهي تهرع إليّ بكفّها الصغيرة الممتلئة الساحرة.

"لا بدّ أنّ هذه هي نيلي العزيزة على قلب ليديا، التي سمعتُ عنها الكثير! ولا بدّ من أنّكِ في الخامسة عشرة الآن، وفقًا لحساباتي البائسة – هل أنا محقّة؟"

يا له من صوت رائع، لطيف وبرّاق وجميل من دون تكلّف – ولكنّها

ما تزال ترفع رأسها بغطرسة. كانت تفعل هذا دومًا حين تقابل الناس – ويعود هذا، جزئيًا كما أظنّ، إلى أنّ ذقنها صارت أميل إلى البدانة، وكانت مُحرَجة من هذا. بدت عيناها الرماديّتان اللامعتان الغائرتان، وكأنّهما تحتويانني داخلهما – تُقيّمانني. ومع أنّها لم تكن أطول قامةً منّي، إلا أنّني شعرتُ وكأنّني عاجزةٌ أمام سلطتها – وحمقاء، حمقاء وخرقاء على نحو بائس. كان شَعْرها الأسود مصفّفًا بتسريحةٍ عالية، پومپادور، تتخلّله خصلات بيضاء جعداء متعرّجة غريبة، جعلتْ شعرها يبدو مثل صوف وَعْلٍ فارسيّ أو حيوان آخر بهذا الفراء الحريريّ. عجزتُ تمامًا عن مواجهة الفضول العابث في عينَيْها، لذا ثبّتُّ عينَيّ على عِقْدٍ من الأميثست المنقوش يلوح خلف ياقة فستانها المربّعة. أظنّ أنّني كنتُ أحدّق مليًا، لأنّها قالت فجأةً: "هل يُزعجكِ هذا العِقْد؟ سأخلعه لو كان يزعجكِ."

بقيتُ مبهوتةً عاجزةً عن النّطق. كان بوسعي أن أحسّ بخدَيّ يحترقان من الخجل. وحينما أدركتْ أنّها أحرجتْني، بدتْ آسفةً، واندفعتْ تُطوّقني بذراعها، وجذبتْني إلى زاوية الصوفا، وجلست بجانبي.

"أوه، سنعتاد على بعضنا! تعلمين، لقد نكرتكِ، لأنّني واثقةٌ من أنّ ليديا وأمّكِ قد غنّجتاكِ قليلاً. أفرطتا في مديحكِ. جيّد جدًا أن تكوني ذكيّة، يا عزيزتي، ولكنْ، يجب ألّا تزيدي الصرامة – لا شيء أكثر إرهاقًا من هذا. والآن، دعينا نتعرّف. أخبريني عن أكثر الأشياء التي تحبّينها؛ هذه هي الطريق المختصرة نحو الصداقة. ما أكثر ما تحبّينه في پارثيا؟ بيت درسكول القديم؟ أعرفه!"

حينما وصل زوجها كنتُ قد بدأتُ أعتقد أنّها ستحبّني. وددتُ لو

تفعل، ولكنّني أحسستُ أنّني لا أملك ولو نصف فرصة لهذا؛ صوتها الطّليق الساحر، ونطقها الواضح الرقيق كانا يذهلانني. ولم أكن واثقةً تمامًا ممّا لو كانت تسخر منّي أم من المواضيع التي كنّا نتحدّث عنها. كانت دعاباتها سريعةً جدًا، وتصيب الهدف بدقّة – كان الأمر كما لو أنّ معدنًا باردًا جدًا قد مسَّ المرء، بحيث يعجز عن تبيُّن ما إذا كان قد احترق بفعل الحرارة أم الصقيع. كنتُ مأخوذةً بها، ولكنْ أغرق في الارتباك. وقد سررتُ حين وصل أوزوالد هنشوه من الفندق.

دخل إلى الغرفة من دون أن يخلع معطفه، واتّجه إلى زوجته مباشرةً، فوقفتْ، وقبّلَتْه. ومرّةً أخرى، استغرقتُ بعض الوقت لفَهْم الوضع؛ تساءلتُ للحظةٍ ما إذا كانا قد جاءا من شيكاگو بقطارَيْن مختلفَيْن؛ إذ بدا من الواضح أنّها سعيدة برؤيته – سعيدة لا لأنّه كان بخير ووصل في الموعد وحسب، بل أيضًا لأنّ حضوره بثّ فيها بهجةً شخصيّةً منعشة. لم أكن أعرف ماهيّة ذلك النوع من الشّعور لدى الناس الذين تزوّجوا منذ وقت طويل.

كان السّيّد هنشوه مُربِكًا على نحوٍ أقلّ من زوجته، وبدا أفضل ممّا كنتُ أتوقّع أن يكون. مَنَحَتْهُ العظام البارزة في وجهه مظهرًا شبه عسكريّ: جبين واسع مجعّد، وجنتان صلبتان، وأنفٌ أشمّ، مقوّس بعض الشيء. ولكنّ عينَيْه كانتا داكنَتَيْن ولطيفَتَيْن، غريبَتَي الشكل – مثل هلالَيْن بالضبط – وله شارب ناعم منسدل، مثل الإنگليز. كان فيه شيءٌ ما يدلّ على شجاعة وسماحة، وعلى أسلوب سلوكٍ بارعٍ وجميل.

"تأخرتُ،" قال مفسّرًا، "لأنّني واجهتُ بعض الصعوبة في ارتداء ملابسي. عجزتُ عن إيجاد أغراضي."

بدت زوجته قلقةً للحظة، ثمّ بدأت تضحك بنعومة. "أوزوالد المسكين! كنتَ تبحث عن قمصانك الجديدة ذات المقدّمة البارزة. طيّب، لا تتعبْ نفسَكَ! أعطيتُها لابن البوّاب."

"ابن البوّاب؟"

"نعم. ويلي بنتش، في حيّنا. على الأرجح أنّه سيرتدي قميصًا من أجل حفل [هنود] الإروكوا هذه الليلة، وتلك هي الحفلة التي تناسب هذا القميص."

مرّر السّيّد هنشوه كفّه بسرعة على شَعْره الأشيب الناعم. "أعطيتِ قمصاني الجديدة السّتّة؟"

"فعلتُ بكل تأكيد. لا يجب أن ترتدي قمصانًا تُبرز صدركَ، ليس حين نذهب إلى مأوى الفقراء. أنتَ تعلم أنّني لا أطيق رؤيتكَ في ثيابٍ لا تليق بكَ."

نظر إليها أوزوالد بدهشة، وعدم تصديق، ومرارة. وابتعد عنّا وهو يهزّ كتفَيه باستخفاف، وجذب كرسيًا. "طيّب، كل ما بوسعي قوله هو، يا لحظّ ويلي!"

"هكذا ينبغي أن تتعامل مع الأمر،" قالت زوجته مداعبةً. "والآن حاولْ أن تتحدّث عن أمر آخر، يمكن أن يهمّ ابنة أخت ليديا. لقد وعدتُ ليدي أن أُعدّ تتبيلة السَّلَطَة."

تُركتُ وحدي مع السّيّد هنشوه. كانت له طريقة مُحبَّبة في تكريس اهتمامه الكامل لفتاة صغيرة. كان "يستدرج" المرء أفضل ممّا كانت

زوجته تفعل، لأنّه لم يكن يُخيف المرء كثيرًا. كنتُ أحبّ مراقبة وجهه، بعظامه البارزة وعينَيْه الودودَتَيْن الذابلَتَيْن – ذلك المزيج المحيّر من أمرٍ ناعم و أمرٍ قاس. وبعد برهة، وصلت أمّي وزوج خالتي وابنا خالتي. وبعدما انتهى الاحتفاء، صار بوسعي مراقبة الزّوّار، والاستمتاع بتأمّلهم، من دون الاضطرار إلى التفكير بما سوف أقوله تاليًا. كان العشاء أكثر بهجةً من العشاءات العائليّة المعتادة. بدا بأنّ السّيّدة هنشوه تتذكّر كلّ القصص القديمة والنّكات القديمة التي كانت هاجعةً طوال عشرين عامًا.

"يا لروعة الأمر!" هتفت أمّي، "حين نسمع مايرا تضحك من جديد!"

نعم، كان الأمر رائعًا. وقد كان رهيبًا أحيانًا، أيضًا، كما سأكتشف في وقت لاحق. كانت لديها ضحكة غاضبة، مثلاً، ما زلتُ إلى اليوم أرتعد حين أتذكّرها. كانت أيّةُ حماقة تدفع مايرا للضحك – كان مُقدّرًا لي أن أسمع تلك الضحكة في أوقات كثيرة لاحقًا! كانت الظروف غير المواتية، والحوادث، وحتّى الكوارث تُحفّز مرحها. وكان هذا مرحًا على الدوام، وليس هستيريا؛ كانت هناك ومضة من التّلذُّذ والفكاهة الوحشيّة في تلك الضحكة.

2

كان البيت الحجريّ الكبير، المُشيَّد في حديقة أشجار تمتدّ على مساحة عشرة فدادين، والمحاطة بسياج عالٍ من الحديد المزخرف، البيت الذي نشأت فيه مايرا درسكول، كان ما يزال، في أيّامي، أجمل بيت في پارثيا. وبعد وفاة جون درسكول آلت ملكيّته إلى كنيسة أخوات القلب المقدّس، ولا يمكنني تذكُّر هذا البيت إلا بكونه دَيْرًا. كانت مايرا يتيمةً، وأُدخلت إلى هذا البيت مذ كانت طفلة صغيرة، ليربّيها عمّ أبيها.

كوَّن جون درسكول ثروته من استثمار عقود تشغيل العمّال في مستنقعات مايزوري. تقاعد من العمل في سنّ مبكّرة، وعاد إلى البلدة التي نشأ فيها صبيًا فقيرًا، وشيَّد بيتًا جميلًا، كان شديد التّباهي به. عاش في ما كانت تُعَدّ بحبوحةً كبيرة في تلك الأيّام. كان يربيّ أحصنة سباق، وولّد حصانًا مهجّنًا، حطّم رقمًا قياسيًا في السباق. اشترى آلات موسيقيّة فضّيّة لفرقة البلدة، وتكفّل براتب قائد الفرقة. وحين كانت الفرقة تصعد إلى بيته لتعزف سرينادات في الهواء الطّلق في عيد ميلاده وأيّام العطل، كان يدعو العازفين للدخول، ويكافئهم بأفضل أنواع الويسكي. وحين كانت مايرا تقيم حفلةً راقصةً أو حفلةً في الحديقة، كانت الفرقة تتكفّل بالموسيقا. كانت فرقةَ جون درسكول في حقيقة الأمر.

كانت مايرا تمتلك كل شيء، كما اعتادت خالتي القول: الفساتين والمجوهرات، حصانًا جميلًا للركوب، وبيانو ماركة شتاينواي. أخذها عمّها معه في إحدى رحلاته إلى أيرلندا، في أحد الأصياف، وطلب من رسّامٍ شهيرٍ أن يرسم بورتريه لها. وبعدما عادا إلى الوطن، إلى پارثيا، صار بيته مشرَع الأبواب دومًا أمام شباب البلدة. كان جمال مايرا ولباقتها يُشعران الرجل العجوز بالرضا. كانت خفّة ظلّها من النّوع الذي يمكن له أن يفهمه، ظرافة فطريّة ولاذعة، وليست مفرطة الاحتشام. كانت تحترمه أشدّ الاحترام، وكان يعلم هذا. كان عجوزًا جلفًا غريب الأطوار، عديم الثّقافة والتّعليم، إلى درجة أنّه كان يتباهى على نحوٍ بائس بحمل قلم. ثمّة قصّة يتناقلها الجميع دومًا عنه بأنّه حين أصبح رئيسًا لهيئة إدارة بنكنا الوطنيّ، أحرق عددًا كبيرًا من أوراق نقد الخزينة التي أرسلوها إلى بيته، ليوقّعها، لأنّه "خرّب التّاو-قيع". ولكنّه كان شديد الخبرة في أمور الرجال ودوافعهم. كان فاتنًا على طريقته، وكانت مايرا تُجلّ هذا الأمر فيه – لم تكن فتيات كثيرات ليفعلنَ هذا. وفي حقيقة الأمر، كانت تشبهه بدرجة كبيرة؛ كانت رابطة الدم قويّة جدًا. ولم يحدث بينهما أيّ خلافٍ جدّيّ إلى حين قدوم الشّابّ هنشوه.

كان أوزوالد هنشوه ابنًا لامرأة ألمانيّة من عائلة جيّدة، وأبٍ أيرلنديّ بروتستانتيّ من مقاطعة أولستر، كان درسكول يمقته؛ كانت هناك ضغينة قديمة من نوع ما بين الرجلَين. كان هذا الأولستريّ مدرّسًا جوّالًا فقيرًا ضعيفًا في الحياة العمليّة، بقي يدرّس في مدرسة پارثيا الثانويّة لفترة، ومن ثمّ صار يدرّس في بلدات أصغر قريبة. تمكّن أوزوالد بجهده من الالتحاق بجامعة هارڤرد بقليل من مساعدة أبَوَيْه. ولم يكن يلفت الأنظار في البلدة إلا بعدما عاد إثر إنهائه دراسته

الجامعيّة، ليصبح شابًا وسيمًا واعدًا. التقى هو ومايرا، كما لو كانا يلتقيان للمرّة الأولى، ووقع كلٌّ منهما في حبّ الآخر. وعندما اكتشف العجوز درسكول أنّ أوزوالد يتودّد لقريبته الصغيرة، منعه من دخول البيت. وقد استمرّا في اللقاء في بيت جدّي، على أيّة حال، برعاية خالتي ليديا. ضيّق برسكول على الشّابّ بشدّة، بحيث شعر بانعدام الفرص أمامه في پارثيا. فاستنفر وجهّز أموره وسافر إلى نيويورك. بقي هناك عامَيْن من دون أن يزور البلدة، وكان يبعث برسائل إلى مايرا عن طريق خالتي.

انجذبت صديقات مايرا كلهنّ إلى شبكة قصّتها الرومانسيّة؛ وتصرّف عدّة شبّان، كما لو كانوا ممثّلين بدلاء لأوزوالد باجتهاد كبير، على أمل أن يظنّ عمّها أنّها ستتزوّج أيّ واحد منهم. وكان أوزوالد، في هذه الأثناء، يرسّخ خطواته في نيويورك، في وقت كانت فيه الرواتب ضئيلةً والتّرقّي بطيئًا. ولكنّه تمكّن من النّجاح وتدبّر أموره، وخلال عامَيْن كان في وضعٍ يؤهّله للزواج. كتب إلى جون درسكول، مفصّلاً موارده واحتمالات المستقبل، وطلب منه يد ابنة أخيه. وحينها انفجر درسكول في وجه مايرا. لم يتعامل معها بنوبة غضب، كما اعتاد أن يفعل حين يتجادلان، بل واجهها بعرضٍ عمليٍّ بارد. إنْ تزوّجتْ الشّابّ هنشوه، سيحرمها من ثروته كُلّيًا من دون أن يدفع لها أيّ سنت. بإمكانه فعل هذا، لأنّه لم يتبنّها بأوراق رسميّة. وإنْ لم تتزوّجه، سترث ثلثَيْ ثروته – وسيتبرّع بالثلث الثالث إلى الكنيسة. "وأنصحك بالتفكير مليًا،" قال لها. "من الأفضل أن يكون المرء كلبًا ضالاً في هذا العالم من أن يكون رجلاً بلا مال. لقد عايشتُ الأمرّيْن، وأعرف هذا جيدًا. الرجل الفقير مقرف، وحتّى الرّبّ يكرهُه."

بعد بضعة شهور من هذا الحديث، خرجت مايرا مع شلّة في عربة جليد. أوصلوها إلى بلدة مجاورة، حيث كان أبو أوزوالد يدرّس، وحيث كان أوزوالد قد وصل سرًا في اليوم السابق. وهناك، بحضور والدَيه وصديقات مايرا، تزوّجا وفقًا للقانون المَدَنيّ، واستقلاّ قطار شيكاگو السريع، الذي انطلق في الساعة الثانية صباحًا.

حين كنتُ ما أزال طفلةً، اعتادتْ خالتي ليديا أن تأخذني في نزهات مشي على طول الرصيف المعبَّد بالحجارة الذي يمتدّ مُطوِّقًا أراضي العجوز درسكول. ومن خلال فرجات السياج الحديديّ كان بإمكاننا رؤية الأخوات، وقد خرجنَ للاستراحة، يمشينَ اثنَتَينْ اثنَتَينْ تحت أشجار التّفّاح. وكانت خالتي تحكي لي عن تلك الليلة المثيرة (ولعلّها الليلة الأكثر إثارة في حياتها بأسرها)، حينما خَطَتْ مايرا درسكول نزولًا على الممشى، وخرجت من البيت، عبر تلك البوّابات الحديديّة الضخمة، للمرّة الأخيرة. كانت تريد المغادرة من دون أن تأخذ أيّ شيء ما عدا الثياب التي ترتديها – وبالفعل مشت خارجةً من البيت، من دون أن تحمل أيّ شيء معها باستثناء موفة الفرو الأنبوبيّة التي دسّت فيها ذراعَيْها وجزدانها. وعلى أيّة حال، كانت خالتي الحصيفة قد وضعت أدوات حمّامها وبعض البياضات في حقيبة سَفَر، وطوّحت بها من النافذة الخلفيّة إلى واحد من الفتيان المتمركزين تحت شجرة تفّاح.

"لن أنسى منظرها ما حييتُ، وهي تمشي نازلةً على ذلك الممشى وقد رمت ثروةً ضخمةً خلف ظهرها،" قالت خالتي ليديا. "كنتُ قد خرجتُ لأنضمّ إلى الآخرين قبل أن تخرج هي – كانت تفضّل أن تغادر البيت وحيدةً. وكنّا نحن الفتيات كلّنا في عربات الجليد فيما وقف

الفتيان تحت الثّلج وهم يمسكون أعنّة الأحصنة. كنّا قد بدأنا نظنّ أنّها قد ضعفت، أو ربمّا ذهبت إلى العجوز، كي تحاول تغيير رأيه. ولكنّنا رأينا أضواء البيت حينما انفتح الباب الأماميّ، ثمّ أُغلق، وها هي ذي قد أتت، رافعةً رأسها، تمشي بخطواتها المميّزة السريعة الأقرب إلى الهرولة. رفعها خالكِ روب، وأدخلها إلى العربة، ثمّ انطلقنا. وقد كان ذلك العجوز قاسي القلب عند كلمته. لم يُذكَر اسمها في الوصيّة. ترك كلّ ما يملك للكنيسة الكاثوليكيّة والمؤسّسات التابعة لها."

"ولكنّهما كانا سعيدَين، على كل حال؟" أسألها أحيانًا.

"سعيدَين؟ أوه، نعم! كانا سعيدَيْن مثل معظم الناس."

كانت تلك الإجابة مخيّبةً للأمل؛ فجوهر مغزى قصّتهما هو أنّ من المفترض أن يكونا أكثر سعادةً من الآخرين.

وحينما صرتُ أكبر سنًا، اعتدتُ المشي حول حديقة بيت درسكول وحيدةً معظم الأحيان، في الأيّام الربيعيّة على الأخصّ، بعد المدرسة، وأراقب الراهبات يمشينَ بخطوات موزونة هادئة بين الأشجار التي أزهرت، حيث اعتادت مايرا أن تقيم حفلاتها في الحديقة، وتطلب من الفرقة الموسيقيّة أن يعزفوا لها. كنتُ أتأمّل البيت، وأفكّر فيه كما لو كان تحت تأثير تعويذة، مثل قصر الأميرة النائمة؛ كان هاجعًا في غيبوبة، أو راقدًا بين أزهاره كجثمان جميل، منذ تلك الليلة الشتائيّة حين خرج الحبّ من البوّابات، وسلّم الأمور للقَدَر. منذ تلك الليلة، استُبدل بالحبُّ التّراتيل والأنساك والانضباط، ورنين الأجراس الصغيرة التي تبدو وكأنّها تدعو الأخوات إلى الصّلوات إلى الأبد.

أعلم أنّ هذا ليس صحيحًا بالضّبط؛ إذ كان العجوز جون درسكول قد عاش هناك لسنوات عديدة بعد هرب ابنة أخيه. ما زلتُ أذكر جنازته – أتذكّرها بوضوح شديد – مع أنّني لم أكن قد تجاوزتُ السادسة من عمري آنذاك. جلستُ مع والديّ أمام منصّة الجوقة، في نهاية الكنيسة التي كان الرجل العجوز قد وسّعها وجدّدها في أيّامه الأخيرة. كان المذبح المرتفع متوهّجًا بفعل ضوء مئات الشموع، وكانت منصّة الجوقة ملأى بآلاف الأزهار. كان المطران حاضرًا، مع جمعٍ من الرّهبان في أرديتهم فائقة الجمال. وحينما وصل حَمَلَةُ النّعش، لم يذهب درسكول إلى الكنيسة؛ الكنيسة هي التي أتت إليه. نزل المطران والرّهبان إلى صحن الكنيسة، ولاقوا ذلك النّعش الأسود العظيم عند الباب، يسبقه الصّليب والأولاد الذين يؤرجحون مباخر، يطوّقها الدّخان، ووراءه الجوقة يترنّمون بالتّراتيل، إلى أن وصلوا إلى آلة الأرگن. احتشدوا، واستقبلوا، وبدوا كما لو أنّهم ذابوا في جسد الكنيسة، جسد العجوز جون درسكول. حملوه إلى المذبح المرتفع في نهرٍ من الألوان والبخور ونغمات الأرگن؛ حملوه، وطوّقوه.

في السنوات اللاحقة، حين كنتُ أذهب إلى جنازات أخرى، صارمة وكئيبة بدرجة كافية، كنتُ أفكّر في جون درسكول، وأظنّه قد نجا من نهاية الجسد؛ بدا الأمر كما لو أنّه قد رُفع إلى السّماء، من دون أيّة نهاية مظلمة للمهرجان، من دون "ليلة القبر" التي يتحدّث عنها واعظونا البروتستانت. من نضارة الورود والزّنابق، من بهاء المذبح المرتفع، مضى مباشرةً إلى المجد الأعظم، مغمورًا بدخان المباخر والشّموع والنّجوم.

بعد أن عدتُ إلى البيت إثر أولى اللمحات التي عرفتُ فيها مايرا

هنشوه الحقيقيّة، وهي أكبر بخمسة وعشرين عامًا من العمر الذي لطالما كنتُ أتخيّلها فيه، عجزتُ عن كبح نفسي من الإحساس بشيءٍ من خيبة الأمل. لقد تبادل جون درسكول وابنة أخيه الأمكنة في ذهني على نحو مفاجئ، وقد ظفر هو، في نهاية المطاف، بالقسم الأكثر رومانسيّة. ألم يكن الخروج من هذا العالم بمثل هذه الأبّهة والرّوعة الدراماتيكيّة أفضل من التريّث هنا فيه، حيث تُضطرّ إلى أن تحسب حساب القمصان ورحلات القطار، بل وتحصل على ذقنٍ بدينةٍ على البيعة؟

بقي آل هنشوه في پارثيا ثلاثة أيّام، وحين غادرا، اتّفقنا على أن أسافر برفقة الخالة ليديا إلى نيويورك في عطلة عيد الميلاد. سوف نقيم في فندق ففث أڤنيو [الجادّة الخامسة] القديم، وهو، على حدّ قول مايرا، على مَرمى حجر من شقّتهما، "فيما لو أحسّ أحد في أيّة لحظة برغبةٍ تدفعه إلى رمي ذلك الحجر، يا ليدي!"



3

وصلتُ مع الخالة ليديا إلى محطّة مدينة جيرزي قبل عيد الميلاد بيوم – كان صباحًا ديسمبريًا غائمًا لطيفًا، يهطل فيه الثّلج بخفّة. كانت مايرا هنشوه هناك لتستقبلنا؛ جميلة جدًا، فكّرتُ، وهي تقترب ماشيةً بسرعة، لتصعد إلى رصيف الانتظار، والفرو يلفّ جسدها الممتلئ – وثمّة قبّعة فرو على رأسها، مع ريشة ضيّقةٍ بلون العقيق تبرز من الخلف، مثل الأحرف الاستهلاليّة الكبيرة في صفحات كُتُب القصص القديمة. لم تكن وحدها. بل كان يرافقها شابّ أنيق طويل، يرتدي معطف أولستر رصاصيّ اللون. كان قد شبك إحدى ذراعَيْه بذراعها، وحمل بالأخرى عصا مشي.

"هذا إيوان گريه،" قالت السّيّدة هنشوه، بعد أن عانقتْنا. "لا شكّ أنّكما رأيتُماه يمثّل في شيكاگو. إنّه ينتظر قطارًا مبكّرًا، أيضًا، لذا اتّفقنا على الخروج باكرًا هذا الصّباح، وتركنا أوزوالد يتناول الإفطار وحده."

حمل الشّابّ حقائبنا، ومشى بجواري إلى العبّارة المائيّة، وهو يطرح أسئلةً مهذّبةً عن رحلتنا. كان اسكتلنديًا، من أسرة مسرحيّة عريقة، شابًا وسيمًا، بوجه أبيض واسع، وشَعْرٍ وشاربٍ بلون الرمال، وعينَيْن رماديَّتَيْن جميلَتَيْن، غائرَتَيْن وحزينَتَيْن خلف أهداب سوداء. صعد معنا إلى سطح العبّارة، ثمّ قالت له السّيّدة هنشوه إنّ بإمكانه الذهاب وتركنا الآن.

"يجب أن تكون هناك حين يصل قطار إستر – وتذكَّرْ، رافقها كي تأتي لتناول العشاء معنا مساء الغد. لن يكون هناك أحد غيرنا."

"شكرًا، يا مايرا." وقف خافضًا رأسه، ينظر إليها بتعبيرٍ ممتنٍّ أقرب إلى التّواضع، رافعًا قبّعته إلى صدره، فيما كانت ندف الثّلج تسقط حول رأسه. "وهل يمكن أن أمرّ لعدّة دقائق هذه الليلة، كي أريكِ شيئًا؟"

ضحكتْ كما لو كان طلبه قد أسعدها. "شيء من أجلها كما أظنّ؟ ألا يمكنكَ أن تثق في اختياراتكَ؟"

"تعلمين أنّني لن أفعل هذا في حياتي،" قال، كما لو كانت تلك قصّة قديمة.

دفعتْه برفق. "هيّا ارتدِ قبّعتكَ، وإلا فستستقبل إستر بعطسة. هيّا، اركض."

راقبتْه بقلق وهو يخطو مبتعدًا، وتأوّهتْ: "آه، يا له من مُتَروٍّ! أتمنّى لو كان بإمكاني جعله يسرع ولو مرّة. ستعلمين عنه كلّ شيء لاحقًا، يا نيلي. لا بدّ أن تريه كثيرًا، ولكنّكِ لن تجدي في الأمر صعوبةً، أنا متأكّدة!"

كان القارب يُبحِرُ مبتعدًا، وكنتُ أُرهق عينَيّ في التّمعّن لألتقط، عبر الثّلج المتردّد الجميل، أولى لمحاتي عن المدينة التي نقترب منها. عبرنا قرب عابرة المحيطات ڤلهلم دير گروسه وهي تجهد في شقّ النّهر عكس التّيّار، وقد غطّى الجليد جانبَيْها بعد رحلة في العاصفة، ويحلّق على إثرها سربٌ من النّوارس. كان الثّلج يُسدل مظهرًا ضبابيًا بعض الشيء على كل ما حولنا، وكانت الأبنية المحاذية لمنتزه باتِري تقترب كلّها

معًا – تبدو مثل حصنٍ بألف نافذة. ومن بين الأفق المحتشد، كانت القبّة الذهبيّة الباهتة لناطحة سحاب جريدة نيويورك وورلد تبزغ مثل قمرٍ خريفيٍّ مُحمَرٍّ في الشَّفق.

ومن محطّة الشارع الثالث والعشرين، استقلَلْنا الحافلة العامّة – كان النّاس يقتصدون نفقاتهم في تلك الأيّام – إلى فندق ففث أڤنيو. وبعد أن فردْنا أغراضنا، ورتّبناها، مشينا قاطعين الساحة، كي نتناول الغداء في مطعم پيرسِلْ، وهناك حكت لنا السّيّدة هنشوه عن إيوان گريه. كان يعيش قصّة حبّ مع إحدى أعزّ صديقاتها، إستر سنكلير، التي ستأتي شلّتها إلى نيويورك في أيّام الأعياد. ومع أنّه كان ما يزال في بداية شبابه، إلا أنّ له، على حدّ قولها، "ماضٍ مُشينًا بعض الشيء،" أمّا الآنسة سنكلير، وهي سليلة عائلة عريقة من نيو إنگلند وقد تلقّت تربيةً ممتازة، فقد كانت عاجزةً عن اتّخاذ قرار فيما إذا كان قد صار وضعه مستقرًا بشأن الزواج أم لا. "لا أجرؤ على إسداء نصيحة لها، مع أنّني أحبّه كثيرًا. بإمكانكما ملاحظة هذا؛ إنّه من الطّراز الملائم من الفتيان الذين يمكن للمرأة أن ترافقه وتهرب معه إلى الغابة. ولكنّه لم يفكّر بالزواج من قبل على الإطلاق؛ وقد تكون هذه هي الفرصة لإصلاحه. إنّه غارقٌ في الحبّ إلى حدّ الغباء – يجول هنا وهناك كالمُسَرْنَم. ومع هذا، لا يمكنني أن أحتمل الذَّنْب لو حدث أيّ أمرٍ قاسٍ لإستر."

كانت الخالة ليديا ومايرا ستذهبان للتّسوّق لبعض الوقت. وحين خرجنا إلى ساحة ماديسن من جديد، لا بدّ وأنّ السّيّدة هنشوه قد انتبهت إلى نظراتي التوّاقة الحزينة، إذ توقّفت للحظات وقالت: "ما رأي نيلي إنْ تركناها هنا، ثمّ نأتي لنرافقها من جديد بعد عودتنا؟ ذاك

هو بيتنا، هناك، في الطابق الثاني – كي لا تبتعدي كثيرًا عن البيت. بالنسبة إليّ هذا هو قلب المدينة الحقيقيّ؛ ولذلك أحبّ العيش هنا." لوّحت لي مودّعةً، وجرّت خالتي، لتبتعدا بسرعة.

كانت ساحة ماديسن في ذلك الوقت على مفترق طُرُق؛ كانت لها شخصيّة مزدوجة، نصف تجاريّة، ونصف اجتماعيّة، حيث المحالّ إلى جهة الجنوب والأبنية السَّكَنيّة إلى الشّمال. بدتْ لي أنيقةً جدًا، بعد كلّ ما رأيتُهُ من رثاثة مُدُننا الغربيّة؛ محميّةٌ بقوّة على يد الأخلاق الحميدة واللباقة – مثل صالة استقبال في الهواء الطّلق. بإمكاني حقًا أن أتخيّل حفلةً راقصةً شتويّةً تُقام هناك، أو حفل استقبال لزائر أوروپيّ مرموق.

بقي الثّلج يسقط بنعومةٍ طوال تلك الظهيرة، وبقي رجال كهول ودودون ينظّفون الممرّات بمكانس – كانوا مستعدّين تمامًا للتّحدّث إلى فتاة من الريف، ولتنظيف مقعد خشبيّ، بحيث يمكنها الجلوس. بدت الأشجار والشّجيرات ودودةً ومشذّبةً بترتيب، مثل أناس مليحين. كان الثّلج فوق الشّجيرات يتشبّث بها، وقد رسم ملامحَ كلّ غصن في كلّ شجرة – خطٌّ من البياض فوق خطٍّ من السّواد. بدت لي حديقة ساحة ماديسن، التي كانت جديدةً وفسيحةً آنذاك، شديدة الخفّة ومدهشةً إلى حدٍّ غير معقول، وكان تمثال ديانا لـ [النّحّات الأميركيّ] سينت گودنز، الذي كانت السّيّدة هنشوه قد حدّثتني عنه، ينتصب بحُرّيّة وبسالةٍ في الهواء المؤطّر بالغيوم. وقفتُ طويلاً عند النّافورة التي تنفث مياهها على نحوٍ متقطّع. كان رذاذها الإيقاعيّ يبدو كأنّه صوت المكان كلّه. كان يعلو وينخفض مثل كائنٍ يأخذ أنفاسًا عميقة سعيدة؛ وكان الصّوت موسيقيًا، بدا وكأنّه ينبع من حنجرة الرّبيع. وعلى

مسافة قريبة، عند الزاوية، تجد عجوزًا يبيع أزهار بنفسج إنكليزيّ، يربط كلّ باقةٍ في ورقٍ شفّاف، ليحميها من الثّلج. وهنا، كما أحسستُ، لم يجلب الشّتاء أدنى وحشة؛ كان مروَّضًا، مثل دبٍّ قطبيّ مربوطٍ بلجامٍ بين يَدَي سيّدة جميلة.

حول الحديقة كانت الظّلال الزرقاء الشّاحبة تصبح أكثف وأقرب. أُضيئت مصابيح الشّوارع على طول الجادّة، وبدأت الأضواء النّاعمة تتلألأ في الأبنية الشّاهقة مع أنّ النّهار لم يأفلْ بعد – أبنية أرجوانيّة، أكثف قليلاً في الجوهر واللون من السّماء الأرجوانيّة فوقها. وبينما كنتُ أحدّق بها رافعةً عينَيّ سمعتُ ضحكة قريبة منّي، وانزلقتْ ذراع السّيّدة هنشوه حول ذراعي.

"يا إلهي، أنتِ مهووسة بالخيال إلى حدّ الشرود، يا نيلي! رأيتُ الصّبيان السُّعاة وهم يتجنّبونكِ!" كان هذا صحيحًا، جموع من النّاس باتوا الآن يمخرون السّاحة جيئة وذهابًا، والصّبيان يحملون أصص نباتات وأكاليل أزهار كبيرة. "ألا تحبّين أن تشاهديهم؟ ولكنْ، لا يمكننا البقاء طويلًا هنا. لا بدّ من أن نذهب إلى البيت إلى أوزوالد. أوه، اسمعي صوت مزمار الصّفيح! إنّ موسيقاه تخلب عقلي دائمًا." أوقفتْ ولدًا نحيلًا يرتدي قبّعةً ووشاحًا صوفيًا، لكنْ، بلا معطف، كان يعزف أُغنيّة "غاسلة الثياب الأيرلنديّة" (The Irish Washerwoman) بمزمار صغير، وبحثتْ في حقيبتها عن قطعة نقد معدنيّة، لتعطيها له.

كانت شقّة آل هنشوه في الطابق الثاني من بناء من الحجر الرمليّ في الجانب الشماليّ من الساحة. أحببتُ الشّقّة منذ لحظة دخولي إليها؛ يا لها من غرف متينة البناء بأسقف عالية، ومدافئ حميميّة وأبواب كبيرة

وشبابيك واسعة. كانت السّتائر المخمليّة الثقيلة الطويلة، والكراسي المخمليّة بلون الخوخ الرائع، مثل فاكهة بنفسجيّة ناضجة. وكانت السّتائر مقلّمةً بذلك اللون الكْريميّ الكثيف الذي تراه تحت القشرة الزّرقاء لتينةٍ ناضجة.

كان أوزوالد يقف قرب النّار، يشرب كأسًا من الويسكي والصّودا وهو ينتظر وصولنا. وضع كأسه جانبًا على إطار المدفأة حينما فتحنا الباب، ثمّ نسيه تمامًا. دفع كرسيَّيْن إلى أمام حاجز المدفأة لخالتي ولي، ووقف يتحدّث إلينا، فيما ذهبت زوجته كي تبدّل فستانها، وتتحدّث إلى الخادمة الأيرلنديّة قبل وقت العشاء.

"بالمناسبة، يا مايرا،" قال قبل أن تخرج وتتركنا، "لقد وضعتُ زجاجة شامپانيا في وعاء الثّلج؛ إنّها ليلة عيد الميلاد."

بدا لي كلُّ شيء في شقّتهم الصغيرة مميّزًا ومتفرّدًا كُلّيًا، حتّى طريقة تقديم العشاء؛ الصّحون الرماديّة السميكة وزبديّة الشوربة المزيّنة بطيور وأزهار كبيرة برّاقة – كنتُ متأكّدةً من عدم وجود مثيلٍ لها في العالمِ كلّه.

بينما كنّا نُنهي طعام العشاء، جاءت الخادمة لتعلن وصول السيّد گريه. ذهب هنشوه إلى غرفة الجلوس، ليستقبله، ثمّ لحقْنا بهما بعد دقيقة. كان الشّابّ يرتدي بدلة مسائيّة، وثمّة أحجار ياقوت بيضاء متناثرة على معطفه. كان يقف قرب النار، يسند ذراعه على إطار المدفأة. بشرته البيضاء النظيفة وعيناه الكئيبتان، ثيابه مضبوطة الأناقة، وشيءٌ ما في شكل يَدَيْه، يجعل المرء متنبّهًا لتأنّق دقيق متعمَّد لطيف فيه. وبالرغم من ماضيه الشّائب فقد بدا، تلك الليلة، نضرًا وبريئًا مثل الأزهار التي

يحملها. كان هنشوه يتحدّث إليه بنبرةٍ يشوبها المزاح، وبدا كأنّه يحاول تعديل مزاجه. لم يكن السيّد گريه يريد الجلوس. وبعد برهةٍ من الحديث المهذّب، قال لمضيفه: "هل لكَ أن تعذرني، لأنّني أريد التّحدّث إلى مايرا على انفراد لعدّة دقائق؟ كانت قد وعدتْني أن تساعدني بمبادرة لطيفة."

اتّجها إلى غرفة مكتب هنشوه الصغيرة، خارج غرفة الجلوس، وأغلقا الباب. كان بوسعنا سماع تمتمة أصوات خفيضة. وحينما عادا إلينا، وقفت السّيّدة هنشوه بجوار گريه، فيما كان يُعيد ارتداء عباءته ذات القبّعة، وهي تتحدّث بتشجيع. "أحجار العقيق جميلة، ولكنّني أخاف منها، يا إيوان. سيضحك أوزوالد عليّ، ولكنّ لها تاريخًا سيّئًا في الأحوال جميعها. الحبّ بحدّ ذاته يجلب على المرأة الحظّ السَّيِّئ كلّه في العالم تقريبًا؛ لمَ، بحقّ الله، نضيف إليه العقيق؟ لقد جلب إسوارتين كي أقرّر أيّة واحدة ينبغي له أن ينتقيها، يا أوزوالد، وكلتاهما جميلتان. كيف سمحوا لكَ بأخذ اثنَتَينْ، يا إيوان؟"

"يعرفونني هناك. وأنا أدفع فواتيري دائمًا، يا مايرا. لا أعلم السبب، ولكنّني أفعل هذا. أظنّ أنّ هذا بسبب الاسكتلنديّ الذي في داخلي."

ثمّ تمنّى لنا جميعًا ليلة سعيدة.

"أعطِ إستر قبلةً عنّي،" قالت السّيّدة هنشوه بسعادة عند الباب. ولكنّه لم يردّ، واكتفى بالانحناء على كفّها، ثمّ اختفى.

"ما أراد حقًّا أن يريني إيّاه كان بعض الأشعار التي كتبها لها،" قالت السّيّدة هنشوه، وهي تقترب من النار. "وهي أشعار جميلة فعلًا، من أشعار المحبّين تلك."

ابتسم السيّد هنشوه. "لعلّكِ تكرّمتِ عليه ببيتٍ أو اثنَيْن، يا عزيزتي؟ ليديا – " ثمّ جلس بجانب خالتي، ووضع كفَّيْه على كفَّيْها – "لن أشعر يومًا بالتّأكّد من أنّني قمتُ بما عليّ من غزَل، هذا إنْ لم أكن قد تأخّرت وفات الأوان الآن. مايرا شغوفة جدًا بمساعدة الشّبّان في هذا. طوال الوقت تقريبًا نجد قصّة حبّ بين أيدينا."

وضعت أصابعها على شَفَتَيْه. "اسكتْ! أكره النسوة العجائز اللواتي يشرفنَ على المغازَلات."

بعدما أنهى أوزوالد تدخين سيگاره، خرجنا كلّنا لمشوار مشي. وقد كان هذا بشكل أساسيّ من أجل المحافظة على "قوامها،" على حدّ قول مايرا، ثمّ بدأنا عفويًا نبحث عن شتلةٍ خضراء، لنرسلها إلى مدام موجسكا. "إنّها تقضي أيّام العطلة في البلدة، وسيكون الجوّ مُغمًّا في الفندق."

عند بائع الأزهار وجدنا، بين كلّ الشّجيرات الصغيرة وأصص الأزهار، شجيرة إيلكس متلألئة، مُثقَلة بثمار علّيق حمراء ومُدبَّبةً مثل شجرة سرو، بحيث تبدو بوضوح وكأنّها الملكة بين مثيلاتها. "تلك هي ما تناسبها تمامًا،" قالت السّيّدة مايرا.

رفع زوجها كتفَيْه بشيء من الاستخفاف: "ومن الطبيعيّ أنّها الأغلى ثمنًا."

رفعت السّيّدة مايرا رأسها بسرعة. "لا تكنْ سخيفًا، يا أوزوالد. فبالتأكيد لن تحتاج المدام إلى تنوّرة صوفيّة أو قفّازات دافئة." ثمّ ألقتْ تعليماتها الحريصة على صبيّ المحلّ، الذي كان عليه أن يأخذ الشّجيرة

إلى فندق سافوي؛ وكان سيحمل إضافة إلى الشّجيرة علبة گاتوه، "من صنع يَدَيّ،" قالت بفخر. ومن المفترض أن يسأل عن السّيّدة هيوزْ، صاحبة الفندق، ويصعد بالشّجيرة بحسب إرشاداتها إلى غرف مدام موجسكا. أبدى الشّابّ اهتمامًا متعاطفًا، ووعد بتلبية تعليماتها. ثمّ أعطتْهُ السّيّدة هنشوه دولارًا فضّيًا، وتمنّت له عيد ميلاد مجيداً.

وحينما كنّا نمشي، شبكت ذراعها بذراعي، وتلكّأنا قليلاً بعد مرافقَيْنا. "انظري إلى القمر وهو يبزغ، يا نيلي – خلف البرج. إنّه يوقظ الذّنب داخلي. لا عبث مع الحبّ؛ وقد أقسمتُ يمينًا معظّمةً أن لا أتدخّل في قصص الحبّ مرّة أخرى. ترسلين شابًا وسيمًا مثل إيوان گريه إلى فتاةٍ رائعة مثل إستر، وها نحن في ليلة عيد الميلاد، وها هما يحلّقان فوقنا وفوق العالم الأبيض حولنا. وما من أحد آخر معهما، لا متسوّلين على مقاعد المنتزهات، فهذا ليس فألًا طيّبًا لهما – وعلى الأرجح بدرجة كبيرة أنّ الجحيم سينبت من ذلك الحبّ!"

4

في الصّباح التالي، جاء أوزولد هنشوه، مرتديًا سترة فراك ضيّقة، وقبّة رسميّة عالية، ليأخذني وخالتي ليديا إلى الكنيسة. كان الطّقس قد صحا قبل أن نأوي إلى النّوم، وحينما خطونا خارجين من فندقنا ذلك الصّباح، كان نور الشمس يكاد يُعمي الأبصار فوق المنتزه المغطّى بالثلج، وكان تمثال ديانا الذهبيّ يبرق تحت سماء زرقاء لازورديّة. كنا متّجهين إلى كنيسة گريس [النّعمة]، وكان الصّباح جميلاً جدًا، لذا قرّرنا الذهاب مشيًا.

"ليديا،" قال هنشوه، وقد شبك ذراعًا في ذراع كلٍّ منّا، "أريد منكِ أن تهديني هديّة عيد ميلاد."

"لماذا، يا أزوالد،" سألتْ متلعثمةً.

"أوه، لقد اشتريتُها، وصارت عندي! كلّ ما عليكِ هو إهداؤها لي." وأخرج علبةً مسطّحةً من جيبه، ودسّها في موفتها الفرو. ثمّ جذبنا، لنصبح أقرب إليه. "اسمعي، لا مشكلة في هذا. إنّهما زرّان للأكمام، أهدتْني إياهما فتاة شابّة، لا تقصد أذى، ولكنّها لا تعرف عن أمور الحياة كثيرًا. إنّها من مدينة غربيّة لطيفة الجوّ، حيث يمكن لفتاة ثريّة أن تعطي هديّةً في أيّ وقت تشاء، ولن يسألها أحد عن هذا. أرسلتْ هذَيْن الزّرّيْن إلى مكتبي البارحة. إنْ رفضتُ قبولهما، وأعدتُهما لها، سأؤذي مشاعرها؛

سوف تعتقد أنّني أسأتُ فهمها. ستُصدَم وتتألّم، بكل تأكيد، ولكنّني لا أريد أن أكون جزءًا من هذا الألم. ومن جهة أخرى – حسنًا، أنتِ تعرفين مايرا؛ لا أحد يعرفها كما تعرفينها. ستُعاقِب نفسها، وتعاقب كلّ مَنْ حولها بسبب هذا التّصرّف المشكوك به لتلك الفتاة الشّابّة. لذا أريد منكِ أن تهديني هذه الهديّة، يا ليديا."

"أوه، يا أوزوالد،" صاحت خالتي، "مايرا ذكيّة جدًا! ولستُ ذكيّة بما يكفي كي أخدع مايرا. ألا يمكن لكَ أن تترك الزّرّيْن في مكتبكَ، وينتهي الأمر؟"

"ليس تمامًا. وكذلك،" أطلق ضحكة فيها شيء من الحرج، "أحبّ أن أرتدي قميصي مع هذَيْن الزّرّيْن. إنّهما جميلان جدًا."

"ولكنْ، يا أوزوالد ..."

"أوه، لا مشكلة في هذا، يا ليديا. أؤكّد لكِ على ضمانتي أنْ لا مشكلة. ولكنّكِ تعرفين كيف يمكن لشيء صغير من هذا النوع أن يزعج زوجتي. فكّرتُ أنّ بإمكانكِ أن تهديهما إليّ حين تأتيان لتناول العشاء معنا ليلة الغد. لن تشعر بالغَيْرة منكِ. ولكنْ، إنْ لم تحبّي الفكرة ... طيّب، خذيهما معكِ إلى البلدة، لو أردتِ، وأعطيهما لأيّ شابّ طيّب، يقدّر معناهما."

طوال فترة مراسم عيد الميلاد في الكنيسة كان بوسعي أن أرى مدى شرود وارتباك الخالة ليديا. وحالما عدنا إلى الفندق، ودخلنا مطمئنّتَيْن إلى غرفتنا، أخرجتْ العلبة البنّيّة الجلديّة من موقتها، وفتحتها. كان

زرّا الكمّين من الزّبرجد، بلون نبيذيّ باهت، مؤطّر بلون ذهبيّ مجعّد. متأكّدة من أنّها أُغريت بجمالهما. "أعتقد حقًا أنّ عليه أخذهما، إنْ كان يريدهما فعلاً. دائمًا يكون كلّ شيء لمايرا. ولم يحدث يومًا أن جلبَ شيئًا خاصًا له. وكلّ الإعجاب يكون موجّهًا لها طوال الوقت؛ لمَ لا ينبغي له أن يظفر بالقليل؟ لقد بقي مخلصًا لفكرة خاطئة. ليس من الجيّد لأيّة امرأة أن تُلاطَف وتُغنَّج كما تغنّجت هي على يَدَيْه. وهي تبالغ بردود أفعالها معه أغلب الأوقات – تبالغ بشدّة!"

في مساء اليوم التالي، وحينما كنّا نمشي قاطعَتَيْن الساحة إلى بيت هنشوه، نظرنا إلى الأعلى، فلمحناهما يقفان عند إحدى نوافذ شقّتهما الأماميّة الواسعة، المحاطة بالستائر خوخيّة اللون. كانا ينظران إلى الخارج، ولكنّهما لم يلمحانا. انتبهتُ إلى أنّها كانت أقصر منه بكثير فعلاً، وكانت تميل بجسدها إليه قليلاً. حينما تكون في لحظات صفائها، تبدو مثل حمامةٍ مُطبَقة الجناحَيْن. كان ثمّة أمرٌ بينهما، وهما واقفان في النّافذة المُضاءة، ثبّط حماسي للتّطفّل بينهما، ولكنّه لم يهزّ خالتي ليديا أبدًا.

وحالما صرنا داخل غرفة الجلوس، وقبل أن نخلع معطفَيْنا، قالت بعزم: "مايرا، أريد أن أعطي أوزوالد هديّة عيد ميلاد. في أحد الأيّام، ترك لي صديق قديم زرَّي كمَّيْن، لم يُرد الاحتفاظ بهما – يحرّضان لديه ذكريات تعيسة، كما أعتقد. ففكّرتُ أن أعطيهما لواحدٍ من أبنائي، ولكنّني جلبتُهما لأهديهما لأوزوالد. أفضّل أن يأخذهما هو أكثر من أيّ شخص آخر."

تحدّثت الخالة ليديا ببساطة وحزم، استأهلا احترامي. أخرجت الزِّرّين من موفتها، من دون العلبة، بالطبع، ووضعتْهما في يد السّيّدة هنشوه.

كانت السّيّدة هنشوه مبتهجةً جدًا. "يا لذكائكِ حين فكّرتِ بهذا، يا عزيزتي ليديا! نعم، إنّهما يناسبانه تمامًا. لا أظنّ أنّني كنتُ سأحبّ أيّ نوع حجر غير هذا، ولكنّ هذَيْن الحجرَيْن مناسبان له بالضّبط. انظر، يا أوزوالد، إنّهما بلون نبيذ الموسيل." كان أوزالد بالذات هو مَنْ بدا مرتبكًا، ولم يكن شديد السعادة. احمرّ وجهه، وبدا مرتبكًا وهو يتحدّث، بل وبدا ممانعًا فعلاً بينما كانت زوجته تصرّ على خلع زرَّي قميصه المذهَّبَيْن، لتضع مكانهما الزِّرَّيْن الجديدَيْن. "لا يمكن لي أن أغلب حدّة ذكائكِ، يا ليدي،" قالت وهي تُحكم إغلاق الزِّرَّيْن.

"هذا غريب عنّي، أليس كذلك، يا مايرا؟" ردّت خالتي بسرعة: "الأمر غريب منّي حين أختار النوع الصحيح من الأشياء. ولكنْ، ألم يخطر لكِ من قبل أنّ هناك أناسًا غيركِ يمكن لهم أن يعرفوا ما يناسب أوزوالد؟ لا، أنا متأكّدة من أنّه لم يخطر لكِ ذلك أبدًا!"

تلقّت السّيّدة مايرا المزحة بطيب قلب كبيرة، إلى درجة أنّني شعرتُ أنّ من العار خداعها. وكذلك كان يشعر أزوالد، أنا متأكّدة. خلال العشاء كان يتحدّث أكثر من المعتاد، ولكنّه بدا مرتبكًا. وبعد ذلك، في الأوبرا، وبعدما أُطفئت الأضواء، انتبهتُ إلى أنّه لم يكن ينصتُ للموسيقا، بل كان يحدّق بشرود في ظلام الصالة، مع مسحة أقرب إلى الأسى في عينَيْه الهلاليَّتَيْن الغريبتَيْن. وخلال أحد الفواصل، انفتح أحد الأبواب الخلفيّة، وهبَّ تيّار هواء. وحينما حرّك ذراعه إلى الخلف ليرفع العباءة

التي انزلقت عن كتفَي زوجته المكشوفتَين، ضحكتْ، وقالت: "أوه، يا أوزالد، أحبّ أن أرى الزّرَّين يبرقان!"

خفض كفّه بسرعة، وعبس بتجهّم كبير، إلى درجة أنّني ظننتُ أنّه يودّ لو يضع زرَّي الزّبرجد تحت قَدَمَيه، ويسحقهما. كنتُ أظنّ أنّه قد عُومل بلطفٍ كما يستحقّ حينذاك، ولكنْ، منذ تلك اللحظة كان قلبه العطوف يُذهلني معظم الأحيان.

5

خلال الأسبوع بين عيد الميلاد ورأس السنة قضيتُ وقتًا طويلًا مع السّيّدة هنشوه، ولكنْ، نادرًا ما كنّا وحدنا. كان ذلك موسم الاستقبالات والزيارات، وقد قالت إنّ مقابلة أناس كثيرين ستُحسّن من آداب سلوكي ولغتي الإنكليزيّة بكل تأكيد. كانت تكره كلامي الغربيّ الدّارج المستهتر. وقد كان أصدقاؤها من نوعَين، كما لاحظتُ: أهل الفنّ – ممثّلون، موسيقيّون، أدباء – كانت معهم دومًا في أفضل حالاتها، لأنّها كانت تحترمهم إلى أقصى حدّ؛ وجماعة أخرى كانت تسمّيهم أصدقاء "النّقود" (وبدت بأنّها تحبّ تلك الكلمة)، وكانت تستقبلهم من أجل مصلحة أوزوالد، على حدّ قولها. "إنّه من أولئك الناس الذين لا ينجحون في البزنس إلا حين يمتلك محفّزات الصداقات. إنّه لا ينتمي إلى عالم البزنس فعليًا. لم نتحدّث يومًا عن هذه المسألة، ولكنّني متأكّدة من أنّه يكره هذا المجال. لم يعمل في مكتب إلا لأنّنا كنّا في سنّ الشباب وغارقين في الحبّ، وكان علينا أن نتزوّج بسرعة."

بدا أنّ أصدقاء (البزنس) جميعهم تقريبًا من الألمان. يوم الأحد زرْنا نصف دزّينة أو أكثر من البيوت الكبيرة. أذكر غرفًا كبيرة جدًا، مؤثّثة ومُنجَّدة بدرجة فائقة، والجدران تغصّ بلوحات كبيرة في إطارات ضخمة، وعددًا كبيرًا من الأرائك الصغيرة المنتفخة القويّة، حيث تجلس النّساء اثنَتَيْنِ اثنَتَيْنِ، فيما كان الرجال يقفون عند طاولات المقبّلات، يشربون

الشامپانيا والقهوة، ويدخّنون سيگارات سوداء كبيرة. وبين هؤلاء الناس كانت السّيّدة مايرا تتصرّف بأرفع سلوك وأشدّه تحديًا للأعصاب. كان بإمكاني أن أرى أنّ بعض النساء كنّ خائفات منها حقًا. كنّ يتسابقنَ في الاندفاع بسرعة لتقديم المقبّلات لها، ويبدينَ مضطربات حين ترفض أيّ شيء. كنّ يخاطبنها بالألمانيّة، ويمتدحنها بإسراف على مدى إتقانها للغة. ركبنا عربةً بعد تلك الظهيرة، وكانت مايرا ترتدي أكثر ثيابها أناقة – تبذل جهدًا استثنائيًا من أجل خاطر أوزوالد؛ ولكنْ، كان الأثرياء وأصحاب السّلطة يستفزّون أعصابها دومًا. كانت جرعة صرامتهم أكبر بكثير ممّا يحتمله حسّ الفكاهة العالي لديها؛ كان ثمّة شيءٌ قاسٍ ولاذع في سخريتها، تغضّنٌ يرتسم في زاويَتَي فمها يتلاشى تمامًا حين تكون مع الأشخاص الذين تسحرها شخصيّاتهم.

قضيتُ وقتَ عصرٍ بهيجًا طويلاً وحدي مع السّيّدة هنشوه في سنترال پارك. مشينا لأميال، وتوقّفنا لنشاهد المتزلّجين، وأخيرًا شربْنا الشاي في الكازينو، حيث أخبرتْني عن بعض المطربين والممثّلين الذين سأقابلهم في شقّتها عشيّة رأس السنة. وغالبًا ما كان وصفها لأصدقائها أكثر إمتاعًا بالنسبة إليّ من الأصدقاء بأنفسهم. بعد أن انتهينا من الشاي أوقفت عربةً مكشوفةً بحصانَيْن، وطلبت من الحوذيّ أن يُنزّهنا حول المنتزه قليلاً، حينما كانت بعض أشعّة الشمس قد بدأت بالتّسلّل. كنّا نضحك بسعادة معًا تحت أشجار الدردار، نراقب تغيّرات انعكاس الضّوء على الثّلج الذي بدأ بالتّقشّر، حينما مرّت بنا عربةٌ مغلقة، أطلّتْ منها امرأة جميلة، ولوّحتْ لنا. انحنت السّيّدة هنشوه بتصنُّع، وهي ترسم ابتسامة مجاملة. "انظري يا نيلي،" هتفت، "تلك هي آخر امرأة كنتُ أتمنّى أن تمرّ بي، وأنا في عربةٍ مكشوفة بحصانَيْن!"

أحسستُ بما بدا لي طموحًا مجنونًا. كانت خالتي تحمد الله دومًا، لأنّ آل هنشوه تدبّرا أمرهما بشكل جيد كما يفعلان الآن، وتُبدي قلقًا، لأنّها كانت متأكّدة من أنّ أوزوالد لم يكن يدّخر شيئًا. وها هنا تجد السّيّدة مايرا تحلم بعربةٍ مغلقة – مع ما يناسبها من إسطبلات وبيت كبير وخَدَم، وقد حدث هذا كلّه بسبب مرور عربة مغلقة! طوال طريق العودة إلى البيت أبقت ملامح ازدراء على وجهها، رافعةً رأسها عاليًا، تتنشّق هواء المساء الأرجوانيّ من هنا وهناك فيما كنّا نعبر الجادّة الخامسة. وبعد أن نزلنا أمام باب بنايتها دفعتْ الأجرة للحوذيّ، ومنحتْه أجرةً كبيرة، إلى حدّ أنّه خلع قبّعته، وقال مرّتَيْن: "شكرًا لكِ، شكرًا لكِ، يا سيّدتي!" صرفتْه بابتسامة وهزّة رأس. "لا يوجد فارق،" همست لي وهي تولج مفتاح الباب الرئيس، "كَمْ هو مقرف، أن تكون فقيرًا!"

في ذلك الأسبوع أخذتني السّيّدة هنشوه معها لأرى صديقةً عزيزةً عليها، آن إيلوَرْد، الشاعرة. كانت فتاةً جاءت إلى نيويورك منذ بضع سنوات وحسب، وقد نالت احترام أهل الأدب، وهي تحتضر الآن بعد إصابتها بالسّلّ في أوائل عشرينيّاتها. كانت السّيّدة هنشوه قد أعطتْني واحدًا من كُتُبها الشعريّة كي أقرأه، وهي تقول: "أريد منكِ أن تريها كي يكون بإمكانكِ تذكّرها في السنوات القادمة، وأريد منها أن تراكِ، كي تناقش وضعكِ كلّنا معًا."

كانت الآنسة إيلورد تعيش مع أمّها في شقّة صغيرة، تطلّ على النّهر الشرقيّ، وقد وجدناها في كرسيّ متحرّك، ترتاح في الشّمس، وتراقب القوارب في النّهر. كانت غرفة مكتبها مكانًا منعشًا في ذلك الصّباح، مليئًا بالأزهار والنباتات وسلال الفاكهة التي أُرسلت إليها في

عيد الميلاد. ولكنّ مايرا هنشوه هي التي جعلت تلك الزيارة مبهجةً إلى درجةٍ عَصيّة على النّسيان. لم أرها من قبل بهذا التّألّق والسّحْر الغريب كما كانت في غرفة المكتب تلك المُضاءة بنور الشّمس هناك في الطابق العلويّ. حديثهما أدهشني إلى أقصى حدّ؛ كانتا تتحدّثان في أمور جميلة، أمور مذهلة عن الناس، والكُتُب، والموسيقا – عن كل شيء؛ بدتا وكأنّهما تتحدّثان معًا بنوعٍ من اللغة الخاصّة شديدة السُّمُوّ.

وحينما كنّا نمشي في طريق العودة إلى البيت، أرادت أن تخبرني بالمزيد عن الآنسة إيلورد، ولكنّ حُنوَّها على صديقتها ورفضها المرير لقدرها خنقا الكلمات في صوتها. كان تعاني عذابًا جسديًا مؤلمًا من أجل تلك الفتاة المسكينة. غالبًا ما كانت خالتي تقول إنّ مايرا كانت مُبذِّرة على نحوٍ ميؤوس منه؛ ولكنّني رأيتُ أنّ تبذيرها الأساسيّ كان في العطف على أناس كثيرين جدًا، وفي الحنوّ عليهم إلى درجةٍ مدهشة. وحينما كان كلُّ ما تفعله هو مجرّد ذِكْر اسم شخص ما تحترمه، سيغمر المرءَ انطباعٌ مباشَرٌ بأنّ ذلك الشخص رائع بلا شكّ، إذ كان صوتها يُسبغ على الاسم نوعًا من النعمة المتألّقة. وحينما كانت تحبّ أشخاصًا، فإنّها تناديهم بأسمائهم الأولى مرّات عديدة وهي تكلّمهم، وكانت تنطق الاسم، أيًا يكن مدى شيوعه واعتياديّته، بطريقةٍ ثاقبة، من دون أن تتعجّل به أو تُدغمه، فلا يُفهَم؛ وكان لهذا التّصرّف، حين يترافق مع تحديقتها الصّريحة المتفرّدة، تأثير غريب. وحينما كانت تخاطب الخالة ليديا، مثلاً، تبدو حينها وكأنّها تخاطب شخصًا يقبع عميقًا وراء الصورة الضبابيّة المُسلَّم بها التي تُميِّز خالتي التي أراها يوميًا، وللحظةٍ تصبح خالتي أكثر تفرُّدًا، وأقلّ اعتياديّةً بالنّسبة إليّ. ولقد لاحظتُ هذا التأثير الفريد لنظرة مايرا وأسلوب ندائها مذ لقيتها أوّل مرّة، في بلدتي پارثيا، حيث كانت

طريقة مخاطبتها لأقاربي قد جعلتْهم جميعًا يبدون جذّابين بدرجةٍ أكبر قليلاً بالنسبة إليّ.

وفي أحد العصاري حين كنّا ذاهبتَيْن إلى عرض ماتينيه في المسرح، انتبهتُ إلى شابّ في إحدى المقصورات، يشبه إلى حدٍّ كبير الشّابّ الموجود في صور فوتوگرافيّة لكاتبٍ مشهور آنذاك. سألت السّيّدة هنشوه ما إذا كان يُعقَل أن يكون هو نفسه. نظرت إلى الاتّجاه، حيث أشرتُ لها، ثمّ أشاحت بنظراتها بعيدًا بسرعة.

"نعم، إنّه هو. كان صديقًا لي في الماضي. تلك عبارة حزينة، أليس كذلك؟ ولكنْ، مرّت أيّام طويلة على زمنٍ، كان يمكن له فيه أن يقف إلى جوار أوزوالد في الشّدائد – ولكنّه لم يفعل. تجاهل الأمر تمامًا. لم يكن هناك. ولم أسامحه مطلقًا."

ندمتُ على أنيّ انتبهتُ إلى الشّابّ في المقصورة، إذ كان بإمكاني طوال فترة المساء ذاك أن أستشعر المرارة تحفر في أعماقها. كنتُ أعلم أنّها تعاني. كان المشهد على الخشبة قد تلاشى أمامها؛ وباتت الدراما داخل ذهنها. كانت تستعيد ذلك الموقف مرّة أخرى؛ تجادل، تتّهم، تستنكر.

وبعدما غادرنا المسرح، تنهّدتْ: "أوه، يا نيلي، أتمنّى لو أنّكِ لم تريه! لا مشكلة أبدًا حين يقولون لنا أن نغفر لأعدائنا؛ إذ لا يمكن لأعدائنا أن يؤذونا كثيرًا. ولكنْ، آه، ماذا عن الغفران لأصدقائنا؟" – ضربتْ بيَدَيْها داخل قفّازَيْها على ياقتها الفرو – "ها هنا المفارقة الجارحة!"

كان آل هنشوه معتادَيْن دائمًا على إقامة حفلةٍ عشيّة رأس السنة.

في ذلك العام، كان معظم الضيوف من جماعة المسرح. بعضهم، كي يصل إلى هناك قبل منتصف الليل، وصل وآثار مكياج المسرحيّة لا يزال على وجوههم. أتذكّر أنّ العجوز جفرسن دي أنگليه وصل وهو يرتدي باروكة شَعره التي استخدمها في المشهد الأخير، ويحمل قبّعته المزيّنة بالريش – خلال العشاء، كان حاجباه المُمَكيجان يتطايران، وينسدلان على عينَيْه مثل خمار. معظمهم قد فارق الحياة الآن، ولكنّهم كانوا شلّة جميلة وقفوا حول الطاولة، ليشربوا نخب بداية السنة الجديدة. وإلى حدٍّ بعيد مقارنةً بالجميع، كانت أجملهم وأكثرهم تميّزًا امرأة فارقت سنّ الشباب، ولكنّها ما تزال جميلةً رغم تقدّم عمرها، هي [الممثّلة] هيلينا موجسكا. بدت امرأةً من عِرْقٍ آخر وزمنٍ آخر، ولم تكن أقلّ ملوكيّة ممّا كانت عليه حين شاهدتُها في شيكاگو وهي تمثّل دور ماري ستيوارت [في مسرحيّة شيلر]، ودور كاثرين في [مسرحيّة شيكسپير] هنري الثامن. أذكر كيف أنّها، حين طلب منها أوزوالد أن تقدّم نخبًا، حرّكتْ ذراعها الطويلة، ورفعتْ كأسها، ثمّ قالت وهي تنظر إلى غَبَش ضوء الشموع بوجه جامد رصين: "إلى بلا-د-ي!"

وبما أنّها لم تكن تمثّل في أيّة مسرحيّة آنذاك، جاءت مبكّرة، قبل الآخرين بفترة معقولة، وقد اصطحبت معها امرأة پولنديّة شابّة، كانت تغنّي في الأوپرا ذلك الشتاء. سنح لي الحظّ بفرصة رؤية موجسكا وهي تجلس وتتحدّث إلى مايرا وإستر سنكلير – كانت الآنسة سنكلير قد عزفت مرّةً في فرقتها. وحينما بدأ الضيّوف الآخرون بالتّوافد، ونُودي على مايرا هنا وهناك، جلستْ [موجِسكا] قرب النار في كرسيّ عالي الظّهر، رأسها يستريح بخفّة على يدها، ونصف وجهها الجميل يغرق في الظّلّ. لكَمْ أتذكّر جيّدًا تينك اليَدَيْن الطويلَتَين المنحوتَتَين الجميلَتَين، اللّتَيْن

تحتضنان قدرًا كبيرًا من الإنسانيّة فيهما. كانتا دنيويَّتَين، بكل تأكيد، ولكنّهما مخلوقتان لدنيا أنبل من دنيانا؛ يدان خُلقتا لتحملا صولجانًا، أو كأس قربان – أو، على سبيل المجاملة، سيفًا.

لم تستمرّ الحفلة لوقت طويل، ولكنّها كانت مفعمةً بالبهجة والحيويّة. كان الجميع جوعى وعطشى. وقد دار نقاش كبير حول سارة برنار حين أدّت شخصيّة هاملت، حيث كانت المسرحيّة تُعرَض طوال الأسبوع، وقد أثارت الكثير من الجدل المحتدم، وحول عودة [التينور البولنديّ] جين دي رِشكه إلى مسرح المتروبوليتان ليلة البارحة، بعد فترة مرض طويلة في لندن.

بحلول الساعة الثانية، كان الجميع قد ذهب ما عدا السّيّدَتَين البولنديَّتَين. اتّجهت موجسكا، بعد أن ارتدت عباءتها الطويلة، إلى النّافذة، وأزاحت الستائر الخوخيّة، ثمّ نظرت إلى الخارج. "انظري، يا مايرا،" قالت بتلك اللكنة السلافيّة التي لم تغبْ يومًا عن كلماتها، مع أنّها تُلقي الشِّعْر الإنكليزيّ بجمال بالغ، "الساحة صارت بيضاء تمامًا تحت ضوء القمر. وكم هي المد-ينة ساكنة، يا لسكونها!" التفتت إلى صديقتها: "إميليا، أعتقد أنّ عليكِ أن تغنّي شيئًا. شيئًا قديمًا ... نعم، من [أوبرا] نورما." دندنتْ نغمةً مألوفةً من بين أنفاسها، وقلّبتْ أنظارها بحثًا عن كرسيّ. جلب أوزوالد كرسيًا. "شكرًا لكِ. وربّما من الأفضل أن نُخفض حدّة الأضواء، أليس كذلك؟" فأطفأ الأضواء.

جلستْ قرب النافذة، نصف ملتفّة بعباءتها، فيما ضوء القمر يسقط على ركبتَيْها. اتّجهتْ صديقتها إلى البيانو، وبدأت تعزف آريا كاستا ديڤا [أيّتها الإلاهة الطاهرة]، التي تبدو في بدايتها مثل ارتعاش أشعّة

القمر على صفحة الماء. كانت تلك الآريا أوّل مقطوعة في صندوق الموسيقا القديم في بيتنا، ولكنّني لم أسمعها تُغنَّى من قبل – ولم أسمعها تُغنَّى منذ تلك الحفلة بمثل هذا السِّحْر أبدًا. أتذكّر أوزوالد واقفًا مثل تمثال خلف كرسيّ مدام موجسكا، بينما مايرا، رابضة على الأرض بجانب المغنّية، وتعانق رأسها بكلتَيْ يَدَيْها، فيما الأُغنيّة تنمو وتُزهر مثل عاطفةٍ جارفة.

بعد أن انتهت الأُغنيّة، لم يقلْ أحد شيئًا ما عدا وداعات خافتة. ومجددًا لفّت ماجسكا العباءة حول جسدها، ورافقهما أوزوالد على الدّرج إلى عربتهما المغلقة. ثمّ تبعناهما، خالتي ليديا وأنا، وحالما قطعنا الساحة، رأينا عربتهما تشقّ طريقها صعودًا في الجادّة. ولسنوات كثيرة، كنتُ أستعيد ذكرى السّيّدة هنشوه مع تلك الموسيقا، وأفكّر بأنّ تلك الآريا مرتبطةٌ على نحوٍ غامضٍ بشيءٍ في طبيعتها نادرًا ما يتمكّن المرء من التقاطه، ولكنّه يحسّ به دائمًا؛ شيء آسر، متّقد، جامح لا أملك اسمًا واضحًا له، ولكنّه كان مسموعًا، مرئيًا في هواء تلك الليلة، وهي تجلس رابضةً في الظلام. وحينما أودّ بقوّة أن أستعيد ذلك الثّراء الخفيّ داخلها، كلّ ما عليّ فعله هو أن أغلق عينَيّ، وأغنّي لنفسي: "كاستا ديڤا، كاستا ديڤا!"

6

يوم السبت، كنتُ مَدعوةً لتناول الغداء في بيت آل هنشوه، ثمّ عليّ أن أذهب وحدي مع أوزوالد، لنحضر عرضًا لبرنار و[بينوا كونستان] كوكلين. وحالما فتحتُ الباب، ودخلتُ إلى الرّدهة الأماميّة، كان أوّل ما تلقّاني الضحكةُ الغاضبةُ للسّيّدة هونشوه، وطوفان من الكلمات السريعة التي تلسع مثل ماءٍ باردٍ مندفعٍ من مرشّة.

"تأكّدْ تمامًا، سأعرف حقيقة هذا المفتاح، وسأدخل من أيّ باب يفتحه مفتاحكَ. هل هذا واضح؟"

ردّ أوزوالد بضحكة خبيثة بكلّ وضوح: "عزيزتي، ستعانين كثيرًا في دخول ذلك الباب. من المصادفة أنّ هذا المفتاح يفتح خزنة ادّخار بنكيّة."

ارتفعتْ نبرة صوتها أكثر بدرجة. "كيف تجرؤ أن تكذب عليّ، يا أوزوالد؟ كيف تجرؤ؟ أخبروني في بنكك أنّ هذا ليس مفتاحًا بنكيًا، مع أنّه يشبهه. ذهبتُ إلى هناك، وأريتُهم إيّاه – في اليوم الذي نسيتَ فيه مفاتيحكَ، واتّصلتَ بي كي، أحضرها لكَ إلى مكتبكَ."

"وتظنّين أنّني أصدّقكِ!"

تنحنحتُ، وقرعتُ الباب ... ولكنّهما لم ينتبها لدخولي. سمعتُ

أوزوالد يجرّ كرسيًا. "إذنْ، أنتِ التي أخذتِ المفاتيح من جيبي؟ كان لا بدّ أن أتوقّع هذا! لا أنسى أبدًا وضعها في جيبي. وأنتِ ذهبتِ إلى البنك، لتجعلي منّي ومنكِ أضحوكة. بإمكاني تخيّل مدى استمتاعهم."

"لا، اطمئن، لن تحتاج إلى هذا! أعرف كيف أحصل على المعلومات من دون أن أعطي معلومات. ها هي نيلي بيردزآي تقرع على الأبواب. هيّا، ادخلي، يا نيلي. ستذهبين مع أوزوالد لتناول الغداء في مطعم مارتن. أنا وهو نتشاجر بشأن حمّالة مفاتيح. لن يكون هناك غداء اليوم هنا."

ثمّ خرجتْ، وبقيتُ واقفةً وقد جمّدني الذهول. كانت هذه الغرفة المتألّقة قد بدت لي مكانًا تعيش فيه خفّة الروح والتّصرّفات الساحرة – أجدها هناك مثلما أجد الستائر الأرجوانيّة وسجّادات الكيڤا والألوان المائيّة الجميلة. والآن صار كلّ شيء أنقاضًا. كان الهواء ساكنًا وباردًا مثل الهواء في الثلاّجة. كان الشّعور الذي سيطر عليّ هو الخوف؛ كنتُ خائفةً، بحيث عجزتُ عن النّظر أو الكلام أو الحركة. بدا كلّ شيء حولي شرّيرًا. حينما تُغادر الطِّيبةُ الناسَ، حتّى ولو للحظات، سنصبح خائفين منهم، كما لو أنّ عقلهم قد تلاشى منهم. وحينما تُغادر الطِّيبة مكانًا، كنّا نجدها فيه دائمًا، سيبدو الأمر مثل تحطّم سفينة؛ نغرق من الأمان إلى شعور آخر مثل هوّة قاتلة، لا قاع فيها.

"كل شيء على ما يرام، يا نيلي،" استعاد أوزوالد هدوءه، ووضع يده على كتفي. "مايرا ليست غاضبةً منّي، ولو بنصف ما تتظاهر أنّها عليه الآن. سأحضر قبّعتي، لنخرج." كان يرتدي سترته القطنيّة، ويجلس إلى مكتبه، يكتب. كانت علبة الحبر مفتوحة، وعلى ورق النّشّاف ثمّة ورقة ملاحظات، يمتلئ نصفها بالكتابة.

كنتُ سعيدةً وأنا أخرج إلى نور الشمس معه. بدت المدينة آمنةً وودودة ومبتسمة. كان الهواء في تلك الغرفة مثل السّمّ. حاول أوزوالد أن يُهدِّئني، ويُنسيني ما حصل. مشينا حول الساحة مرّاتٍ ومرّاتٍ، وطلب لي كأس شيري في مطعم مارتن، كي أهدأ قليلاً، وبدأ يشير إلى الناس المثيرين للاهتمام في المطعم، ويخبرني قصصًا عن كلّ واحد منهم. ولكنْ، من دون قبّعته، ورأسه بمواجهة النافذة، بدا متعبًا ومضطربًا. تعجّبتُ، كما حدث لي حين رأيتُهُ أوّل مرّة، في بلدتي، وأنا أتأمّل التناقض في وجهه: العظام البارزة، والعينَين غريبتَي الشّكل، وقد خلتا من بريق أيّ نار دفء. أحسستُ أنّ حياته لم تناسبه؛ أنّه كان يمتلك نوعًا ما من الشجاعة والقوّة التي خمدت، والتي كان يمكن أن توقد نفسها بقوّة في عالم من نوع آخر. فكّرتُ أنّ من الأفضل له لو صار جنديًا أو مستكشِفًا. بدأتُ أنتبه إلى تينك العينَين الهلاليَّتَين في وجوه أناس آخرين منذئذ، وقد كانت كلّها ملتبسة غامضة مثل عينَيْه: تواجه العالم بلباقة ولطف، ولكنْ، يعجز المرء عن اختراق ما وراءهما.

ذهبنا إلى المسرح، ولكنّني لا أتذكّر الكثير من ذلك العرض ما عدا أسى كئيباً، يُوجِع القلب، واقتناع أنّ عليّ ألّا أحبَّ السّيّدة مايرا بقوّة بعد الآن أبدًا. كان هذا يوم الأحد. ويوم الاثنَيْن كنتُ وخالتي ليديا نجهّز أنفسنا للعودة إلى البيت. ولم نرَ آل هنشوه مرّة أخرى حتمًا. إذ جاءت الخادمة صباح الأحد وهي تحمل أزهارًا ورسالة من مايرا، تقول فيها إنّ صديقتها آن إيلورد كانت في حالة سيّئة، وقد أرسلت تطلب حضورها.

ويوم الاثنَيْن ركبْنا قاربًا من العبّارة في وقت مبكّر، كي نتناول الإفطار في محطّة جيرزي قبل وصول قطارنا. كنّا قد استقررْنا في أماكننا في عربة

القطار، وقد باتت لحظة الانطلاق قريبة، حينما سمعنا ضحكة سعيدة، وها هي مايرا هنشوه أمامنا، تدخل إلى المقطورة بقبّعتها الفرو، يتبعها حمّال، يحمل حقائبها.

"لم أخطّط للأمر بهذه الدّقّة، يا ليدي،" ضحكتْ، مع شيء من الاختناق في صوتها، "مع أنّني كنتُ أعلم أنّنا سنكون على متن القطار نفسه. ولكنّنا لن نتشاجر، أليس كذلك؟ إنّني ذاهبة إلى پتسبرگ فقط. لي أصدقاء قدامى هناك. حصل خلاف بيني وبين أوزوالد، وقد هجرتُهُ، كي أفكّر في الوضع بهدوء. لو كان بحاجة إليّ، بإمكانه اللحاق بي حتمًا."

طوال اليوم كانت السّيّدة مايرا سعيدة وودودة، بالرغم من أنّها عاملتْنا بشيءٍ من الرسميّة الخفيفة، كما لو كنّا معارف جددًا. تناولْنا الغداء معًا، ولاحظتُ، وأنا أجلس بمواجهتها، أنّها حين كانت في مزاج الاستخفاف الشديد هذا، كان فمها، الذي يمكن أن يكون شديد الرّقّة – الذي يُعلي من شأن أسماء أصدقائها، وينطقها برقّة متناهية – كان هذا الفم مختلفًا تمامًا. بدا وكأنّه يلتفّ ويتلوّى مثل أفعى صغيرة. ويبدو أنّ إطلاق العنان لنفسها كي تفكّر في الإساءة لأيّ شخص كانت تحبّه من قبل يُغيِّر طبيعتها، بل وحتّى ملامحها.

كان الظلام قد خيَّم حين وصلْنا إلى پتسبرگ. أخذ حمّال العربة أمتعة مايرا إلى نهاية المقطورة. أومأت بيدها بتلويحة وداع، وكانت تتحضّر لمغادرتنا، ثمّ استدارت وعلى وجهها ابتسامة صغيرة باردة. "أوه، يا عزيزتي ليديا، لم تكوني مضطّرة للكذب بشأن زرَّي الكمَّيْن الأصفرَيْن ذينك. كنتُ واثقةً من أنّني سأكتشف الأمر، أنجح في هذا دائمًا. لا أحمل ضغينة تجاهكِ، ولكنْ، من المقرف للمرء أن يكذب من أجل

إكسسوارات شخصيّة. يمكن أن تفعل المرأة هذا، لنقلْ ... من أجل لآلئ!" ثمّ بإيماءة مبتهجة، استدارتْ، وخرجتْ من المقطورة، رافعةً رأسها، وريشةُ القبّعةِ الحمراءُ الطويلةُ تتهادى وراءها.

كانت الخالة ليديا تشتعل غضبًا. "لقد سئمتُ من دراميّات مايرا،" قالت. "سئمتُ منها حقًا. لا يمكن لتصرّفات أيّ رجل أن تُبرَّر أبدًا، ولكنْ، لو كان يمكن تبريرها ...".

القسم الثاني

1



بعد عشر سنوات من تلك الزيارة إلى نيويورك، تصادفَ أنّني كنتُ في مدينة على الساحل الغربي تنمو بسرعة فائقة، وبدأتْ تغصّ بسكّانها، وقد كانت في مخاض تطوُّر سريع – كانت تنمو قرب الشاطئ، تتعثّر بنفسها، ثمّ تنحدر في البحر على نحوٍ أهوج. كان كلّ فندق ونُزل قد فاق قدرته القصوى على استقبال النُّزلاء، وقد كنتُ فقيرةً جدًا. كانت الأمور الاقتصاديّة قد ساءت على عائلتي وعليّ. أتيتُ إلى الغرب في منتصف العام، كي أبدأ عملي في مدرسة – كانت مدرسةً مرتجَلةً وهشّة مثل كلّ شيء آخر في ذلك المكان. وجدتُ مأوى في شقّة فندقيّة، بائسة العمران، وقد بدأتْ تتداعى أصلًا، مع أنّها ما تزال جديدة. انتقلتُ إلى هناك في صباح يوم أحد، وبينما كنتُ أُفرغ حقائبي، تناهى إلى سمعي، عبر الجدران الرّقيقة، جاري وهو يتحرّك هنا وهناك؛ كان رجلًا، ويبدو، من خلال البحّة التي في سعاله وشيء من التّروّي في خطواته، بأنّه ليس شابًا. كان التّأنّي في خطواته، والتّحفُّظ الحذر في حركاته، قد جعلاني أتأكّد من أنّه لم يكن يرغب في فرض تفاصيل حياته البيتيّة على الناس الآخرين قدر المستطاع.

وقد شممتُ الآن رائحة الگازولين الكريهة في الهواء، وسمعتُ صوت حريرٍ يُفرَك ويُنفَض، ومن ثمّ صوتًا يهمهم لحنًا ألمانيًا قديمًا – نعم، إنّها

أُغنيّة "فرولنگرگلاوب" [إيمان الربيع] لشوبرت؛ تا تا تَ-تا/ تا-تا تا-تا تا-تا/تا. وخلال لحظات، رأيتُ أطراف ربطات العنق الغامقة ترفرف من النافذة المجاورة لنافذتي.

أصابني هذا كله بالكآبة – أكثر حتّى من الوحشة التي في وضعي. كنتُ شابّةً، ولم أكن لأكترث كثيرًا بما سيحدث لي؛ ففي سنّ الشباب الأمل موجود على الدوام، الثقة بحتميّة قدوم أيّام أفضل. ولكنّ مشهد رجل عجوز، جنتلمان، يعيش في غرفة رثّة غير مريحة، ينظّف ربطات عنقه في صباح يوم أحد، ويدندن لنفسه أُغنيّةً ... هذا ما تسبَّب لي بكآبةٍ لا تُطاق. وكم شعرتُ بالسرور حين أغلق بابه بهدوء، ولم أعد أسمع شيئًا من غرفته.

كان هناك مطعم متواضع في الطابق الأرضيّ من الفندق. وفيما كنتُ أنزل كي أتناول عشائي ذلك المساء، صادفتُ، على أعلى الدّرج، رجلًا يصعد حاملًا صينيّة صفيح سوداء كبيرة. كان رأسه منحنيًا، وعينان تنظران إلى الأسفل. وحينما أزاح جسده جانبًا، ليسمح لي بالعبور، وبرغم شَعْره الأبيض الخفيف وكتفَيْه المتهدِّلتَيْن، ميَّزتُ أنّه أوزوالد هنشوه، الذي لم أره منذ سنوات بعيدة – بالأحرى، لم أره منذ تلك الظهيرة التي رافقني فيها لنرى سارة برنار وهي تؤدّي دور هاملت.

حينما نطقتُ اسمه، أجفل، ونظر إليّ، وأراح الصينيّة على حافّة النافذة العارية من الستائر، والتي تُنير الدّرج الذي يخلو من السّجّاد. "نيلي! نيلي بيردزآي! هل هذا معقول؟" كان صوته متشكّكًا غير واثق تمامًا. بدا مصدومًا بشدّة، وأخرج منديلًا، ليمسح به جبينه. "ولكنْ، نيلي كم كبرتِ! لم أكن لأعرفكِ. يا له من فأل طيّب لمايرا! لن تصدّقني

أبدًا حين أخبرها. إنها مريضة، عزيزتي مايرا المسكينة. آه، مريضة جدًا! ولكنْ، لا ينبغي لنا أن نتحدّث عن هذا، أو أن نبدو وكأنّنا نعرف به. كم سيعني لها حين تراكِ من جديد! كان أصدقاؤها يشكّلون قيمةً كبيرة لديها دومًا، ألا تتذكّرين؟ هل تسمحين أن تتوقّفي وتمرّي إلينا حين تصعدين؟ غرفتها رَقْم اثنَينْ وثلاثين؛ اطرقي الباب بهدوء، وسأكون في انتظارِكِ. والآن لا بدّ أن آخذ لها العشاء. ياه، أتمنّى من أجلها أن تكوني مقيمةً لبعض الوقت. ليس لديها أحد هنا."

رفع الصينيّة، ومشى بخفّة على طول الرّدهة الخالية من الأثاث. لم أحسّ بشهيّة كبيرة لتناول الخضار المعلّبة واللحم القاسي الذي وضعتْهُ النّادلة أمامي. كنتُ أعلم أنّ آل هنشوه قد مرّا بأيّام عصيبة، وكانا يتنقّلان بين مُدُن ساحل المحيط الهادي. ولكنّ مايرا انقطعت عن كتابة رسائل لخالتي ليديا، ما عدا تهنئة موجزة في عيد الميلاد المجيد، وفي يوم ميلادها. كما توقّفت عن تزويدنا بأيّة معلومات بشأن ظروف حياتهما. وقد علمنا أنّه بعد عدّة سنوات من زيارتي إيّاها إلى نيويورك، وُضعت شركة السكك الحديديّة التي كان أوزوالد يعمل كسكرتير شخصيٍّ لمديرها لسنوات تحت تصرّف القضاء، وقد ذهب المدير المتقاعد، ليعيش خارج البلاد. بقي هنشوه مع الإدارة الجديدة، ولكنْ، بعد فترة وجيزة، باتت طريق السكّة بيد إحدى شركات شاحنات النقل الضخمة، وانقسم كادر الشركة إلى قسمَين. وفي إعادة التّنظيم هذه عُرض على هنشوه منصب صغير، ولكنّه رفضه ساخطًا – إذ لم تكن زوجته لتسمح له بمجرّد التّفكير بقبوله. سافر إلى سان فرانسسكو، ليعمل مديرًا لأحد مكاتب السّمسرة؛ ولكنّ الشركة أفلستْ، وأُغلقتْ، ولا أعلم ما الذي حدث لهم بعد هذا.

تلكّأتُ طويلاً في تناول عشائي البائس. لم أكن أمتلك الشجاعة للصعود إلى الطابق العلويّ. لم يكن هنشوه قد تجاوز السّتّين، ولكنّه بدا أكبر بكثير. كان لديه ذلك الوجه المتعب المرهق مثل وجه شخص، فَقَدَ الأمل كُلّيًا.

كان أوزوالد قد أنهضَ زوجتَهُ من السرير لاستقبالي. حينما دخلتُ كانت تجلس في كرسيّ متحرّك قرب نافذة مفتوحة، تلفّ جسدها برداء نوم صينيّ، وتضع شالًا برّاقًا على ساقَيْها. مدّتْ كلتَيْ ذراعيها نحوي، وعانقتني، وأطلقتْ ضحكتها السعيدة القديمة.

"ياه، ألم يكن من الذّكاء أن تجدينا، يا نيلي؟ وها نحن مختفيان بأمان – في قاع الأرض كزوجٍ من الثعالب المُسنّة! ولكنْ، ذُكر في أوراق اللعب أنّنا لا بدّ سنلتقي من جديد. الآن أفهم؛ جاءت إليّ امرأة حكيمة، لتقرأ لي حظّي، وها هي ملكة القلوب [الكبّة] تخرج من بين رزمة الأوراق حينما لم يكن ثمّة مجال لها لتخرج أساسًا؛ صديق محبوب يعود من الماضي. ياه، يا نيلي ، يا عزيزتي، عجزتُ عن التّفكير في أيٍّ من الأصدقاء القدامى الذين لم يكن من الأفضل أن يبقوا بعيدين، لهذا السبب أو ذاك، فيما نحن في هذا الكسوف الجزئيّ. أكتسب القوّة بشكل أسرع حين لا أضع الناس في ذهني. ولكنْ، أنتِ، يا نيلي ... هذا أمر مختلف." وضعتْ كلَّ يدٍ من يَدَيّ على خَدَّيْها، محيطةً بهما وجهها مثل إطار. "هذا مختلف. شخص شابّ، صافي الذّهن، مليء بالأفكار إلى أقصى حدّ، ومن دون ماضٍ. ولكنْ، ربّما صار لكِ ماضٍ الآن؟ أحلك أيّام الماضي تأتي أوّلًا."

كنتُ أضجّ بِالبهجة. لقد كانت ... كانت هي نفسها، مايرا هنشوه! لم أكن أتوقّع أمرًا بهذه الروعة. كانت اللمبات المتدليّة في الغرفة مغطّاة

وملفوفةً بأوشحة ملوّنة، ولذا فقد بدت [مايرا] في الضوء أقلّ تغيّرًا من أوزوالد. كانت زاويتا فمها قد استرختا قليلاً، ولكنْ، لا يزال يمكن لهما أن تتكوّرا باستخفاف في اللحظة المناسبة؛ كان أنفها هو ذاته الأنف الدّقيق المتكبّر، بفتحَتَيْه المقوَّسَتَيْن المتململَتَيْن، ولم يكن ذقنها الممتلئ قد امتلأ أكثر، بل بدا أرقّ. وثمّة خصلة شَعْر قويّة سوداء، يتخلّلها الشيب ملتفّة على قمّة رأسها الذي، كما قالت، "لم يعد رأس امرأة على الإطلاق، بل ربّما صار يليق بواحدٍ من أشرّ الأباطرة الرومان."

كان سريرها في تجويف الجدار خلفها. وفي عتمة الغرفة المليئة بالظلال، تمكّنتُ من رؤية بعض البُسُط من شقّتهم القديمة في نيويورك، وبعض اللوحات القديمة التي تقشّرت براويزها، وتشرَّخ زجاجها. ها هنا صينيّة شاي مايرا الصّغيرة المرصّعة، والمكتب حيث كان أوزوالد يكتب في ذلك اليوم الذي وصلتُ فيه إلى بيتهم في أثناء شجارهما. وعلى النّوافذ كانت الستائر العزيزة خوخيّة اللون، وقد تكسّرت خطوطها الكْريميّة، وبهتت – ولكنّ رؤيتها ملأتْني بسرورٍ أكثر ممّا كان يمكن لي أن أبوح به لآل هنشوه.

"ومن أين أتيتِ، يا نيلي؟ ما الذي تفعلينه هنا، بحقّ السماء؟"

وحينما كنتُ أروي لها ما حدث لي، كانت تُنصت باهتمام، وهي تُمسك معصمي بإحدى يَدَيْها الصّغيرَتَيْن الجميلَتَيْن، اللّتَيْن كانتا تبدوان بصورتهما تلك لعوبَتَيْن على نحوٍ عَصيٍّ على الشرح، وما تزالان، كما انتبهتُ، بيضاوَيْن ومُعتنى بهما بحرص.

"آه، ولكنْ، التّدريس، يا نيلي! لا أحبّ هذا، ولو حتّى كعمل موقّت.

إنّه مأزق لا فكاك منه. يستنفد الشّباب المتحمّسون طاقاتهم كلّها عليه؛ يفعلون هذا بلا أيّ منطق. وحدهم الحمقى وعديمو الإحساس هم مَنْ ينبغي لهم أن يُدرِّسوا."

"ولكنْ، ألا تسمحين لي، أنا أيضًا، بكسوف موقّت؟"

ضحكتْ، واعتصرتْ كفّي. "آه، لم نكن لنختبئ في العتمة لو كنّا في الخامسة والعشرين! كنّا سنشتعل، ونُلقي بالشّرارات هنا وهناك مثل شهابَيْن، أليس كذلك، يا أوزوالد؟ لا، لا يمكنني أن أحتمل أن تكوني معلّمة، يا نيلي. لمَ ليس الصّحافة؟ بإمكانكِ دومًا شقّ طريقكِ بسهولة في ذلك المجال."

"لأنّني أكره الصحافة. أعلم ما أودّ فعله، وسأشقّ طريقي حتمًا، إنْ منحتِني الوقت فقط."

"كما تشائين، يا عزيزتي." تنهّدتْ. "ولكنّني أتوقّع منكِ الكثير. لا أملك صبرًا على الشّباب حين يضلّون طريقهم. أتمنّى لو كنتُ قد عشتُ حيواتهم بدلًا منهم؛ كنتُ سأتدبّر أموري! ولكنْ، ها نحن ذا؛ حينما يحين الوقت الذي تكونين فيه قد تعلّمتِ الطُّرُق المختصرة، ستكون قَدَمَاكِ قد انتفختا، بحيث تعجزين عن قطع تلك الطّريق أصلًا. والآن أخبريني عن أمّكِ، وعن غاليتي ليديا."

بالكاد كنتُ قد بدأتُ الكلام حين رفعتْ إصبعًا، وتنشّقتِ الهواء. "هل التقطتِ الرائحة؟ رائحة البحر المرّة تلك؟ إنّها تأتي مع نسيم الليل. أعيش عليها. أحيانًا يكون بإمكاني أن أتنزّه على طول الشاطئ. تابعي كلامكِ؛ كنتِ تقولين إنّ ليديا وأمّكِ تتنازعان حاليًا على الاحتفاظ

بپورتريه المرحوم جدّكِ. لمَ لا تقصّينها نصفينْ من أجل كلٍّ منهما، يا نيلي؟ أتذكّرها تمامًا، ويمكن أن يكون نصفها كافيًا لأيّ شخص!"

وعندما كنتُ أخبرها بكلّ نميمة ممتعة بوسعي تذكُّرها عن عائلتي، كانت هي تجلس مشلولةً، ولكنْ، قويّةً في أرديتها البرّاقة. بدت امرأةً قويّةً ومكسورة، سخيّةً وطاغية، ذكيّةً وعجوزًا خبيثة، تكره الحياة، بسبب هزائمها، وتحبّها من أجل عبثيّتها. أتذكّر ضحكتها الغاضبة، وكيف أنّها كانت دومًا تستقبل الصدمة أو الأسى بتلك الضحكة الجَذِلة الجافّة التي بدت وكأنّها تقول: "آ-ها، ها هنا دليلٌ آخر لديّ، واحد آخر، ضدّ الظلم الشّنيع الذي يسمح الله بوجوده في هذا العالم!"

وحينما كنّا نتحدّث، تعكّرَ سكون تلك الأُمسيّة الشّباطيّة المنعشة على نحو غريب بوقاحةٍ بفعل صوت انصفاق الأبواب ووقع الخطوات الثقيلة فوقنا. أجفلت السّيّدة هنشوه، ولاحت نظرة رعب وعجز في عينَيْها، وارتسمت ملامح عذاب، على وجهها. التفتَتْ بحدّة إلى زوجها، الذي كان يجلس مسترخيًا بهدوء في أحد كراسيهم القديمة الفسيحة، على مقربة في ذلك الضوء الشّحيح. "ها قد جاؤوا، هؤلاء الحيوانات!"

نهض واقفًا. "لقد عادوا من الكنيسة،" قال بصوت مرتبك.

"لمَ يجب عليّ أن أعرف حين يعودون من الكنيسة؟ لمَ يجب عليّ أن أعرف تفاصيل وجودهم الفوضويّ الأحمق فوق رأسي طوال النّهار، ونصف الليل؟" هتفتْ بحدّة فجأة. باتتْ قسمات وجهها متشنّجة، كما لو كانت في نوبة ألم، وأدركتُ مدى عجزها عن تحمّل الأشياء.

"حظّنا تعيس بشأن الناس الذين يسكنون حولنا،" قال أوزوالد

مفسّرًا. "إنّهم يزعجوننا بدرجة كبيرة. هذه البيوت الجديدة سيّئة العمران، بحيث ينتشر فيها أخفض صوت."

"ألا يمكنكَ أن تطلب منهم أن يمشوا بهدوء أكبر؟" قلتُ مقترحةً.

ابتسم، وهزّ رأسه. "لقد فعلنا هذا، ولكنْ، يبدو أنّ هذا التّنبيه قد زاد الأمر سوءًا. إنّهم من هذا الطّراز من البشر."

تدخّلت زوجته. "الطراز الثّرثار من الجنوبيّينْ؛ بكلّ تلك الأوحال المتدفّقة على السطح، وبلا أدنى حساسيّة على الإطلاق - عِرْق بلا حروف ساكنة في النّطق، وبلا أيّة لباقة. يتخبّطون فوقنا طوال اليوم مثل القطيع. يمكن للثّور الفحل أن يخطو بشكل أهدأ. لا يُفرغون طاقتهم في أيّ أمر نافع، لذا يستنفدونها في الثّرثرة والخبط، فيدمّرون أعصابي ومخّي."

بالكاد كانت قد توقّفتْ عن الكلام لالتقاط أنفاسها حين سمعتُ صوت رنين هاتف من فوق، ثمّ ضحكات صادحة، وشخصَينْ يركضان على الأرض، كما لو كانا في سباق جري.

"هل تسمعين؟" نظرت السّيّدة هنشوه إليّ بانتصار. "تينك الدّجاجتَان السخيفتَان يتسابقان إلى الهاتف، كما لو أنّ حبيبًا على الخطّ. حينما كنتُ ما أزال قادرة على صعود الدّرج، ذهبتُ إلى تلك المرأة، وناشدتُها، فبدأتْ رشّاش كلماتها عن "أوختي" و"إيبني،" ويا لمدى "تاحضُّرهما" ... آه، تلك هي قسوة أن تكون فقيرًا؛ إذ يتركك الفقر تحت رحمة مثل هؤلاء الخنازير! المال حماية، عباءة؛ يمكن أن يشتري للإنسان الهدوء، ونوعًا من الكرامة." أعادت جسدها إلى الخلف، وقد أُرهقتْ، وأغلقتْ عينَيْها.

"هيّا، يا نيلي،" قال أوزوالد بصوت خفيض. رافقني على طول البهو نحو باب غرفتي. "أعتذر، لأنّ الإزعاج بدأ حين كنتِ هناك. يذهبون أحيانًا إلى السينما، ويبقون لوقت متأخر،" قال بحزن. لقد تحدّثتُ إلى تلك المرأة وإلى ابنها، ولكنّهم ليسوا من الطراز المتعاطف من البشر."

"ولكنْ، ألا تتدخّل إدارة الفندق في حال المرض؟"

هزّ رأسه مرّة أخرى. "لا، إنّهم يدفعون إيجارًا أعلى من إيجارنا – يشغلون غرفًا أكثر. وبالنسبة إلى الإدارة نحن تحت الأمر الواقع إلى حدٍّ ما."

2

وسرعان ما اكتشفتُ الوقائع بشأن وضع آل هنشوه الحاليّ. يعمل أوزوالد في وظيفة متواضعة، ضئيلة الأجر، في شركة طُرُق المدينة. كان عليه أن يكون في مكتبه في تمام الساعة التاسعة صباح كلّ يوم ما عدا الأحد. يستيقظ في الخامسة صباحًا، ويرتدي أفرولًا قديمًا (تصادفَ أنّه أفرول عمليٌّ جدًا، مثل لباس الضّفادع البشريّة مع ياقة عسكريّة، وهو من بقايا أيّام الرّخاء)، يذهب إلى غرفة زوجته، ويحمّمها، يرتّب سريرها، يحضّر أغراضها، ثمّ يُعدّ الإفطار. يغلي القهوة على موقد زجاجيّ، ويحمّص التوست في محمصة كهربائيّة. كانت تلك هي الوجبة الوحيدة التي يمكن لهما أن يتناولاها معًا، وبما أنّهما يتناولانها قبل وقتٍ طويلٍ من استيقاظ عائلة پويندكستر الهمجيّة وبداية ضجيجهم فوق رأسَيهما، فقد كان الإفطار مناسبةً بهيجة عادةً.

وبعد إنهاء الإفطار يغسل أوزوالد الصّحون. كان عنصر رفاهيّتهما الوحيد هو حمّام خاصّ، بخزانة كبيرة، كان أوزوالد يسمّيه مطبخه. وبعد إتمام كلّ ما عليه، يعود إلى غرفته، يرتّبها، ثمّ يرتدي ثيابه من أجل الذهاب إلى المكتب. ما يزال يرتدي ثيابه بأناقة كبيرة، مع أنّني عجزتُ عن فهم قدرته على فعل هذا بالثّياب القليلة التي يمتلكها. كان هو الرجل الوحيد الذي يبدو مُهندَمًا من بين نزلاء ذلك الفندق الرّثّ.

وبمعروف خاصّ من شركته كان يُسمَح له باستراحة لساعتَيْن في الظهيرة، من أجل زوجته المريضة. يعود إلى الفندق، يجلب غداءها من مطعم الفندق، ثمّ يهرع عائدًا إلى مكتبه.

تُعِدّ مايرا شايها بنفسها كلّ عصر، إمّا وهي جالسة في كرسيّها المتحرك أو وهي متّكئة على عكّاز. وفكّرتُ أنّ واحدًا من الأشياء اللطيفة التي يمكن لي فعله لها هو أن أجلب لها شطائر صغيرة أو قطع كيك من المخبز السويديّ، كي تأكل شيئًا آخر غير بسكويتها المعلَّب. تتعذّب كثيرًا، كي تحضّر شايها كما يجب؛ وقد صارت تُحسّ برثاثة أقلّ حين بدأتْ تستعمل أدوات الشاي الفضّيّة والفناجين الإنكليزيّة المذهّبة الثلاثة التي حملتْها معها في حقيبتها. وغالبًا ما كنتُ أذهب إليها لأشرب الشاي معها، ونقضي بعض أجمل الساعات في ذلك الوقت من النّهار، حين يكون جيرانها في الطابق العلويّ قد غادروا غرفهم أغلب الأحيان. وعندما يكونون في غرفهم، وبكامل نشاطهم، كان من المؤلم جدًا معايشة معاناة السّيّدة هنشوه. كانت حسّاسةً جدًا حيال الضّجيج والأضواء، وكان آل پويندكستر يتحرّكون مثل القطيع فعلًا - باستثناء أنّ خبطهم الهمجيّ لا يمتلك ذلك الوقار الموزون الذي تمتلكه الحيوانات دائمًا. وكانت السّيّدة هنشوه تفرح إلى أقصى درجة حين ترى الأزهار، أيضًا، وخلال أشهر الشتاء الأخيرة كان تبذيري الأساسيّ ولذّتي الكبرى يكمن في إحضار الزهور لها.

وفي عصر يوم سبت دافئ، في بداية نيسان، خرجنا في نزهة بالعربة إلى الشاطئ. كنتُ قد استأجرتُ عربة مغلقة واطئة بحوذيّها الزنجيّ الودود. وبالاستناد إلى ذراعه وذراعي، تمكّنت السّيّدة هنشوه من

النّزول إلى الشارع. كانت تبدو أكبر عمرًا وأشدّ مرضًا بكثير في معطفها الجوخ الأسود وقبّعتها التافيتا السوداء التي كانت أنيقةً في ما مضى. أخذنا معنا معطفها الفرو وبطّانيّةً مضلّعة قديمة. كان يومًا ربيعيًا لطيفًا وجميلاً. ولكنْ، للأسف، لم نجد طريقًا شاغرةً إلى البحر. وأخيرًا وصلْنا إلى رأس بحريّ أجرد، ليس فيه إلا شجرة منحنية قديمة واحدة فقط، والبحر تحتنا.

"ياه، يا نيلي!" هتفت بتعجّب، "إنّه يشبه الجرف في مسرحيّة الملك لير، جرف گلوستر. هذا هو! ألا يمكننا أن نبقى هنا؟ متأكّدة من أنّ هذا الرجل الأسمر اللطيف سيُجلسني تحت الشجرة هناك، ثمّ يعود لاصطحابنا في وقت لاحق."

لففْناها ببطّانيّة، وقالت إنّ جذع شجرة الأرز القديمة، المنحني عكس جهة البحر، سيكون ظهريّةً مريحةً لها. غادرنا الحوذيّ الزنجيّ، وذهبتُ لأتمشّى على الشاطئ، لأنّني أدركتُ أنّها تريد أن تبقى وحيدة. ومن على مبعدة، كان بإمكاني رؤيتها وهي تستند إلى شجرتها وتتأمل البحر، كما لو كانت تنتظر شيئًا ما. مرّت عدّة سفن تحتها، وكانت النّوارس تغطس وتحلّق حول الرأس البحريّ، وأشعّة الشمس الخفيفة تبرق على أجنحتها. ضوء بعد الظهيرة، الذي كان في البداية ممتدًا وشاحبًا بلون الماء، بات أقوى وأشدّ صفرة، وحينما عدتُ إلى مايرا، كان الضّوء يضرب جُرفها من جهة الغرب، كما لو كان منعكسًا من خلال عدسة.

رفعت عينَيْها إليّ بابتسامة عذبة – ما يزال يمكن لوجهها أن يكون جميلاً جدًا في اللحظات الرقيقة. "لقد قضيتُ ساعة جميلة، يا عزيزتي؛ أم استغرق الوقت أكثر؟ الضوء والسّكون: إنّهما يشفيان جروح المرء

– جروحه كلّها إلا واحدًا، حيث لا يُشفى ذاك إلا بالعتمة والسّكون. اكتشفتُ أنّني لم أنسَ الأحاديث الذكيّة، ذلك النوع الذي كنتُ أجده حولي دائمًا، حين كان بإمكاني الحصول على السّكون. إنّه أشبه بماء بارد، يُطفئ الحمّى.

جلستُ بجانبها، وراقبْنا الشّمس وهي تنخفض أكثر باتّجاه غطستها الأخيرة في المحيط الهادي. "أودّ لو أشاهد هذا المكان في الفجر،" قالت مايرا فجأة. "ذلك الوقت هو وقت الغفران دومًا. حينما ينطلق ذلك الشّعاع المتلألئ البارد الأوّل على صفحة المياه، يبدو الأمر كما لو أنّ خطايانا قد غُفرتْ؛ كما لو أنّ السماء قد انحنتْ على الأرض، وقبّلَتْها، ومَنَحَتْها الغفران. هل تعلمين أنّ أولئك الذين أمعنوا في خطاياهم يعودون إلى بلادهم دومًا، ليموتوا في دَيْر أو صومعة، ويخرج رئيس أو رئيسة الدَّيْر لاستقبالهم بقبلة؟"

وبالطبع، حين وصلْنا إلى البيت، كانت متعبة جدًا. كان أوزوالد في انتظارنا، وحملها بمساعدة الحوذيّ إلى الأعلى. وعندما كنّا نساعدها على الاستلقاء في السرير، اندلع الضجيج من فوق – خبط، ركض، جَلَبة! فبدأت مايرا تبكي.

"آه، لقد عدتُ إلى هنا، كي أتعذّب من جديد! أنا مصابة بمَرَضَيْن قاتلَيْن، ولكنّ موتي سيكون على أيدي أولئك الكائنات الفظّة. لمَ لم تتركيني هناك، يا نيلي، بين الريح والليل؟ يجب أن تخرجني من هنا، يا أوزوالد. لو كنتُ أمشي على قَدَمَيّ بكامل صحّتي، وكنتَ أنتَ المريض، لم أكن لأسمح بوجود هذه الدناءة والخبط فوقكَ."

"سأذهب لأرى أولئك الناس غدًا، يا سيّدة هنشوه،" وعدتُها. "أنا واثقة من أنّ بإمكاني فعل شيء ما."

"أوه، لا تفعلي، يا نيلي!" نظرتْ إليّ برعب. "ستستقبل تلك المرأة كلامكِ بأذن طرشاء. تعرفين أنّ الكتاب المقدّس يقول إنّ الأشرار صُمٌّ مثل الصّلّ. ويا نيلي، إنّ لها رقبة بيضاء متجعّدة مثل عنق ثعبان الصّلّ، تلك المرأة، وعينَيْن قاسيتَيْن كعَيْنَي أفعى. لا تقتربي منها!"

(ذهبتُ لأرى السّيّدة بويندكستر في اليوم التالي، وقد كان عنقها وعيناها كما وصفتْها مايرا. ابتسمتْ، وقالتْ إنّ تلك المرأة المريضة في الأسفل حكاية طويلة، وكان ينبغي أن تُودَع في مصحّ منذ زمن طويل).

"لا تقلقي، يا مايرا. سأخرجكِ من هنا حتمًا. سأتدبّر الأمر،" وعدها أوزوالد وهو يرتّب الوسائد تحتها.

مسحتْ على شَعْره. "لا، يا أوزوالد المسكين الغالي، لن يمكنكَ أن تبتعد كثيرًا، وأنا أثقل عليكَ. آه، لو كان الشباب يعرف ما سيحدث!" أسبلت عينَيْها، وضغطت بكفَّيْها عليهما. "إنّه الدّمار لي ولكَ معًا. لقد دمَّر كلٌّ منا الآخر. كان يجب أن أبقى مع عمّي. المال هو ما كنتُ بحاجة إليه. لقد رمينا بحياتنا في وجه الريح."

"هيّا، يا مايرا، لا تتحدّثي هكذا أمام نيلي. أنتِ لا تعنين ما تقولين. تذكّري السنوات الطويلة التي كنّا فيها سعيدَيْن. ذلك كان واقعًا، وهو حقيقيّ مثل واقعنا هذا الآن."

"لم نكن سعيدَيْن يومًا حقًا. أنا امرأة جشعة، أنانيّة، متعلّقة بالدنيا؛

أردتُ النجاح وتحقيق مكانة في هذا العالم. وها أنا الآن عجوز ومريضة وخائفة، ولكنْ، ما تزال لديّ القدرة على أن تكون لي مكانتي بين أناس يشبهونني؛ عُوملتُ بلباقة من أناس ذوي أخلاق حميدة، ولم أسمح لعقلي أن يُخدَع على يد الأشرار. اخرجا، لو سمحتُما، أنتما الاثنان، واتركاني!" وأدارتْ وجهها إلى الحائط، وغطّتْ رأسها.

خرجْنا إلى البهو، وما إنْ أغلقْنا الباب، سمعنا صوت المزلاج يُغلق خلفنا. لا بدّ أنّها قفزتْ بسرعة من السرير، وأغلقتْه. مشى معي أوزوالد إلى غرفتي. "هذا ما يحدث دائمًا، حين تستمتع بأمر ما يتجاوز قدرتها الصّحّيّة. كانت هناك أوقات لا تُطيق أن ترى أحدًا بجانبها. كان الأمر أسوأ قبل أن تأتي."

أقنعتُهُ بأن يدخل إلى غرفتي، ويجلس ليشرب كأسًا.

"أحيانًا كانت تغلق الباب، ولا تسمح لي بالدخول لأيّام كاملة،" قال. "يبدو هذا غريبًا – على امرأة بمثل تلك الصداقات الغزيرة. يبدو كما لو أنّها قد استهلكت ذلك الجزء من ذاتها. ويا له من عبء مرهق عليّ حين تغلق الباب على نفسها كما حدث الآن. أخاف دومًا أن تؤذي نفسها بوسيلة ما."

"ولكنّ الناس لا يقترفون أفعالًا كهذه،" قلتُ بيأس.

ابتسم، وشدّ كتفَيْه. "آه، ولكنّها ليست الناس! إنّها مولي درسكول، ولم يكن هناك أبدًا شخص مثلها. ليس بوسعها الاحتمال، ولكنّها تمتلك شجاعة مستميتة، تكفي كتيبةً كاملة."

3

في الصباح التالي، رأيتُ هنشوه يتناول الإفطار في المطعم، بخلاف عادته الدائمة، لذا خمّنتُ أنّ زوجته ما تزال في عزلتها. أحسستُ بالسعادة لرؤية أنّه لم يكن وحيدًا، بل كان يتحدّث، بسرور واضح، إلى فتاة شابّة، تعيش مع أمّها في ذلك الفندق. كنتُ قد لاحظتُ إعجابها المحترَم بهنشوه في مناسبات عديدة. كانت تعمل في جريدة، وذكيّة، و-كما يعتقد أوزوالد – واعدة. وكنا نستمتع بالتّحدّث إليها على الغداء أو العشاء. ربّما كانت في الثامنة عشرة، ولكنّ جسدها أكبر من سنواتها تلك، وكانت غريبة الأطوار، بشَعْر قصير ووجه بليد بعض الشيء؛ ولكنْ، كان ثمّة أمر غريب في عينَيْها البريئتَيْن الصافيَتَيْن يُبقي المرء في حالة تساؤل. كانت متأهّبةً دومًا لاقتناص لحظة مع أوزوالد، لتُغريه بالتّحدّث إليها عن الموسيقا، أو الشِّعْر الألمانيّ، أو عن الممثّلين والكتّاب الذين عرفهم في حياته. كان يسمّيها رفيقتي الصغيرة، وقد كان إعجابها به مصدر دعمٍ له بلا أدنى شكّ. كانت جميلة وساذجة إلى أبعد الدرجات. ولعلّ هذا كان أحد الأسباب التي تدعوه إلى البقاء دومًا في أبهى حلّة في ثيابه وتصرّفاته. بين الناس لم يبدُ على الإطلاق شخصيّةً تبريريّة أو مسحوقة. وكان ما يزال يرتدي زرَّي الكمَّيْن الزّبرجد القديمَيْن.

يوم الاثنَيْن، وأنا في طريقي إلى غرفتي بعد أن أنهيتُ دوامي في

المدرسة، رأيتُ باب غرفة السّيّدة هنشوه مواربًا قليلًا. كانت تميّز وقع خطواتي، فنادتْني: "هل يمكن أن تدخلي، يا نيلي؟"

كانت مستلقيةً في السرير في ذلك العصر، ولكنّها ارتدت أبهى فستان نوم، وكانت تطلي أظافر يَدَيْها الصّغيرتَيْن الرقيقَتَيْن – فأل خير، هكذا ظننتُ.

"هل يمكن أن تتوقّفي قليلًا لتشربي الشاي معي، ونتحدّث؟ سأكون على ما يرام اليوم، أعدكِ. استيقظتُ في الليل، وبكيتُ، وقد أراحني هذا كثيرًا. تعلمين، كنتُ أبكي حيال أشياء لم أعد أشعر بها الآن؛ كنتُ أحلم أنّني عدتُ شابّة، وأنّ أسى الشّباب دفعني إلى البكاء!" أمسكتْ بيدي حين جلستُ قربها. "هل تعرفين تلك القصيدة لـ [هاينرش] هاينه، حيث وجد في عينه دمعةً، لم تكن دمعة الحاضر، بل دمعة قديمة، ما تزال باقية من بين الدّموع التي كان يذرفها في ما مضى؟ دمعة تنتمي إلى زمن ميت قديم من حياته، وقد بدت مفارقة زمنيّة. عجز عن تبرير سبب وجودها، ومع ذلك ها هي ذي، لذا خاطبها على نحو فائق الجمال: ´أيّتها الدمعة القديمة، الوحيدة!` هل تقرئينها لي، من فضلكِ؟ تجدين هناك كتيّبي من شِعْر هاينه، على الرّفّ قرب الصوفا. بإمكانكِ إيجاد البيت الأوّل بسهولة، Du alte, einsame Träne! [ما الذي تريدُه الدّمعةُ الوحيدة؟]"

قلّبتُ صفحات الكتاب، أقرأ قصيدة هنا وهناك، حيث أجد طرف صفحةٍ مطويًا، أو حيث أرى بيتًا، أعرفه جيدًا. كان كتابًا قديمًا ضخمًا، بصفحات مصفرّة، مجلّدًا بغلاف جلديّ مزخرف، وعلى صفحة الغلاف وجدتُ إهداءً مكتوبًا بحبر بنفسجيّ باهت، "إلى مايرا من أوزوالد،" مؤرّخًا في عام 1876.

كانت صديقتي مستلقيةً بلا حراك، مُسبلةً عينَيْها، وبين لحظة وأخرى تتجمّع إحدى دموع المفارقة الزمنيّة تلك على أهدابها، ثمّ تسقط على الوسادة، مخلّفةً بقعةً رماديّةً صغيرة. وغالبًا ما كانت تلتقط بداية البيت من فمي، وتُكمله بنفسها.

"ابحثي عن قصيدةٍ قصيرة صغيرة، عن زهرة تنمو على قبر منتحرة، ´die Armesünderblum`، زهرة الخاطئة المسكينة. أوه، تلك هي الزهرة التي تناسبني، يا نيلي؛ ´die Arme – sünder - blum`!" قطّعتْ الكلمة، وأطالتْها، بحيث باتت قصيدةً، بحدّ ذاتها.

"تعالي، يا عزيزتي،" قالت ما إنْ أغلقتُ الكتاب، ووضعتُهُ جانبًا، "أنتِ لا تحبّين حقًّا هذا الشِّعْر الذي ينتشر في الأجواء حاليًا، أبيات شنيعة عن أناس شنيعين ومشاعر مبتذلة – لا تحبّينه فعلاً؟"

وحينما ذكّرتُها أنّها كانت تحبّ والت وتمن، ضحكتْ بمكر. "وهل هذا الأمر يُنقذني؟ هل يمكن لي أن أدخل إلى جبلكم پارناسوس الجديد بوساطة ذلك العجوز البذيء؟ أظنّ أنّ عليّ أن أكون سعيدة بأيّة تذكرة عبور في عمري هذا! أحبّ الأشعار المشاكسة، حينما لا تحاول أن تكون مفرطة ومبهرجة. أحبّ ذلك النّوع الذي يكتبه الفتيان الجامحون عن الأسوار. كان لدى عمّي مجموعة نادرة، تضمّ أشعارًا كهذه في رأسه، بحيث انتقى منها ما كُتب عن الأسوار والأبنية الخارجيّة الملحقة. أتمنى لو أنّني دوّنتُها؛ ربّما كنتُ سأصبح شاعرةً، لها اسمها! كان عمّي رجلاً غير عاديّ على الإطلاق. هل أخبروكِ بما يكفي عنه في البلدة؟ نعم، كانت لديه تحاملات عنيفة؛ ولكنّ هذا أمر يطيب تذكّره في هذه الأيّام التي لا نجد فيها إلا قلّة قليلة من الناس الذين يمتلكون عواطف حقيقيّة،

أكانت في الحبّ أو الكراهية. كان سيساعد أصدقاءه، مهما كلّفه الأمر، وكان يجازف بتدمير نفسه مرارًا وتكرارًا، من أجل سحق عدوٍّ من أعدائه. ولكنّه لم يدمّر نفسه أبدًا. فالرجال الذين يكرهون بهذه القوّة يمتلكون في العادة القوّة التي تمكّنهم من دعم أنفسهم، سترين هذا. لقد أعطاني تحذيرًا مُنصِفًا، ومن ثمّ أوفى بعهده. كنتُ أعلم أنّه سيفعل؛ إذ إنّنا متشابهان بما يكفي في هذا الأمر. وقد وزّع أمواله بحكمة؛ ذهب جزء منها لبناء ملجأ للنساء العجائز والفقيرات في شيكاگو، وقد كانت المدينة في حاجة إليه."

وفي أثناء حديثنا عن ذلك الملجأ، وعن بعض اللاجئات اللواتي أوينَ فيه، قالت مايرا فجأة: "أتساءل ما إذا كنتِ تعلمين عن عبارةٍ تخصّني في ذلك الملجأ؟ تنصّ على أنه إذا جاءت ابنة أخي مؤسّس الملجأ، مايرا درسكول هنشوه، إلى الملجأ في أيّ وقت من الأوقات، فيجب استقبالها وإيواؤها في الملجأ، مجانًا بلا أدنى تكلفة، ويُدفَع لها مبلغ عشرة دولارات أسبوعيًا كمصروف جيب إلى حين وفاتها. ياه، كم كان ذلك العجوز أشبه بإبليس! كوني على ثقة من أنّه حين أملى ذلك النّصّ على محاميه، كان يفكّر في نفسه: ´سترمي بنفسها في النهر قبل أن تأتي، تلك الكلبة!` ولكنْ، ربّما كانت نيّته حسنةً تجاهي، ولعلّه مات وهو يحمل مشاعر ودودة تجاهي في قلبه. كان كلٌّ منا يفتخر بالآخر أشدّ الافتخار، ولو كان قد بقي على الحياة إلى الآن، كنتُ سأعود إليه، وأطلب عفوه؛ لأنّني أعرف تمامًا ما يعنيه أن تكون عجوزًا ووحيدًا ويائسًا. نعم، وكذلك لأنّنا كلّما كبرنا صرنا أقرب أكثر فأكثر من الجبلّة التي زرعها آباؤنا فينا. بإمكاني أن أحسّ بوحشيّته وهي تقوى داخلي. حين نكون في سنّ الشباب نظنّ بأنّنا فريدون جدًا، ويُساء فهمنا طوال

الوقت؛ ولكنّ الطبيعة التي تحملها سلالتنا موجودة هناك، تترقّب، مثل هيكلنا العظميّ."

كانت ظلمة الغسق قد حلّت ونحن نتحدّث. وحينما نهضتُ وأضأتُ أحد تلك المصابيح المغطّاة، نظرت السّيّدة هنشوه إليّ، وابتسمتْ بمرح. "لقد قضينا ظهيرة ومساءً رائعَينْ، وقد نسيتِ الشّمطاء آلامها. يا لإشعاع الشعراء العظيمين، يا نيلي! يضيئون زوايا العالم المظلمة كلها. ما من ليلٍ وَهُمْ موجودون."

كانوا يضيئون من أجلها، بكل تأكيد. كانت الآنسة سترلنگ، "فتاة شابّة رائعة من المكتبة،" كما تصفها مايرا، تأتي أحيانًا جالبة كُتُبًا جديدة، ولكنّ عينَي مايرا تتعبان بسرعة، لذا صارت تغلق الكتاب الجديد، وتريح جسدها مستلقيةً، تستعيد الكُتُب القديمة التي تحفظها عن ظهر قلب، تُردِّد الخُطب الطويلة من مسرحيَّتَيْ رتشرد الثاني أو الملك جون. وحينما كنتُ أعبر قرب بابها تتناهى إلى أذنيّ تمتماتها [من مطلع رتشرد الثاني] بأخفض درجة من درجات صوتها بلكنته الأيرلنديّة الفخمة:

العجوز جون گونت، دوق لانـ - كسـ - تر المُبجَّل ...



4

في عصر أحد الأيّام حينما وصلتُ إلى الفندق من المدرسة، وجدتُ رسالة من السّيّدة هنشوه تحت بابي، فذهبتُ إليها فورًا. رحّبتْ بي، وقبّلتْني بإجلال غير معتاد.

"نيلي، يا عزيزتي، هل يمكن أن تؤدّي لي معروفًا خاصًا جدًا يوم غد؟ إنّه الخامس عشر من نيسان، ذكرى وفاة مدام موجسكا." أعطتْني مفتاحًا، وطلبتْ منّي فتح صندوق قديم في زاوية الغرفة. "ارفعي الصينيّة، وستجدين في الأسفل، في إحدى الزوايا، زوجًا قديمًا من قفّازات طويلة من جلد الماعز، مربوطَيْن على شكل كيس. هاتيه لي، لو سمحتِ."

بحثتُ تحت بطّانيات خفيفة قديمة وفساتين سهرة، ثمّ وجدت القفّازَيْن، اصفرّا بفعل الزمن، ورُبطا من طرفَيْهما برباط كورسيه؛ كان فيهما شيءٌ ثقيل يرنّ. كانت مايرا تراقب وجهي، وضحكتْ. "هل تظنّ هي أنّهما قفّازا زفافي، وقد احتفظتُ بهما بحرص بالغ؟ لا، يا عزيزتي؛ لقد مثلتُ أمام قاضٍ مدنيّ، وتزوّجتُ بلا قفّازات، لو جاز لي القول!" وبعدما حلّت الخيط، هزّت الكيس، فانهمر منه مطر خفيف من قطع العشر دولارات والعشرين الذهبيّة.

"كلّ النساء الأيرلنديّات العجائز يخبّئنَ قليلاً من المال." أخرجتْ

عملةً منها، وأعطتني إيّاها. "هل يمكن أن تذهبي إلى كنيسة سانت جوزف، وتسألي عن الأب فَيْه؛ قولي له إنّكِ من طرفي، واطلبي منه أن يحْيي قدّاسًا غدًا من أجل راحة نفس هيلينا موجسكا، كونتيسة بوزنتا-شلابوڤسكا. سيتذكّر؛ ففي السنة الماضية، ذهبتُ إلى هناك بنفسي. أنتِ متفاجئة، يا نيلي؟ نعم، لقد قطعتُ علاقتي بالكنيسة حين قطعتُ علاقتي بكل شيء آخر، وهربتُ مع ألمانيّ ذي تفكير متحرّر؛ ولكنّني أؤمن بالكلمات المقدّسة والشّعائر المقدّسة في الوقت ذاته. وأحسّ بسلوان حين أعرف أنّ قدّاسًا سيُحيا غدًا بسبب امرأة غير مؤمنة من أجل راحة نفس تلك الفنّانة النّبيلة، تلك المرأة الجميلة الدّمثة."

وبعدما أعدتُ الذهب إلى الصندوق، وبدأتُ إعداد الشاي، قالت: "وبالطبع، لا يعرف أوزوالد أيّ شيء عمّا أمتلكه من مال. وقد احتجنا في مرّات عديدة إلى مئة أو مئتَي دولار بشكلٍ مُلِحّ؛ ولكنّه لن يفهم الأمر. فأنا أدّخر هذا المال لأغراض غير دنيويّة؛ ولن تمسّه حاجات هذه الدنيا أبدًا."

وحينما كنتُ على وشك الخروج، نادتْني: "أوه، يا نيلي، ألا يمكننا أن نذهب إلى جرف گلوستر يوم السبت، إنْ كان الجوّ مناسبًا؟ أتوق جدًا إلى الذهاب!"

ذهبنا مرّة أخرى، ثمّ أخرى. لم يبدُ أنّ ثمّة شيء آخر يمنحها سعادةً بكلّ هذا القدر. ولكنّنا لم نذهب في المرّة الثالثة، إذ قالت إنّها لن تتحمّل تعب الطريق. وجدتُها تجلس في كرسيّها المتحرّك، تحاول كتابة رسالة إلى صديقة قديمة، ممثّلة أيرلنديّة، كنتُ قد لقيتُها في شقّتها في نيويورك، كانت إحدى ضيوف حفلة رأس السنة تلك. كان ابنها،

وهو ممثّل شابّ، قد أطلق النار على نفسه في شيكاغو، بسبب علاقة حبّ قذرة. كنتُ قد قرأتُ خبرًا عن هذا في الجريدة.

"لقد أثّرتْ بي هذه القصّة جدًا،" أخبرتْني السّيّدة هنشوه. "يا إلهي، كنتُ أُبقي بيلي عندي لأسابيع كاملة حين تكون أمّه في جولة. كان أصدق وأطيب ولدٍ عرفتُهُ. وكَمْ تمنّيتُ أن يعيش سعيدًا. هل تتذكّرين أمّه؟"

كنتُ أتذكّرها جيدًا – كانت ضخمة ظريفة ودودة. وبدأت مايرا تحدّثني عنها، وعن ابنها الذي لم تره مذ كان في السادسة عشرة.

"أن يرمي بشبابه هكذا، ويطلق الرصاص على نفسه في الثالثة والعشرين! يتحدّث الناس دومًا عن مسرّات الشباب – ولكنْ، آه، يا لمعاناة الشّباب! لم أنسَ شبابي بعد؛ في ليالي إلينوي الجنوبيّة الحارة تلك، حينما كان أوزوالد في نيويورك، ولم أكن أعلم عنه شيئًا إلا عن طريق ليدي، فكنتُ أستلقي على الأرض طوال الليل، وأُنصت إلى قطارات الإكسپرس تأتي وتذهب. لم أنسَ بعد."

"ولهذا أتعجّب لمَ تكونين أحيانًا قاسيةً جدًا معه الآن،" تمتمتُ.

لم تُجبني السّيّدة هنشوه مباشرة. ارتعشتْ زاويتا فمها، ثمّ تشنّجتا، وجلستْ مسبلةً عينَيْها، كما لو كانت تهيّئ نفسها لأمر ما.

وأخيرًا تنهّدتْ، ونظرتْ إليّ بحزن. "لَكَمْ يدعو إلى الشفقة، يا نيلي، أن تمدّي يدًا جاحدة، وتحاولي تخريب ماضي أيّ إنسان، أليس كذلك؟ نعم، إنّها قسوة شديدة. ولكنّني أعجز عن كبحها. إنّه عاطفيٌّ جدًا،

لطالما كان هكذا؛ بإمكانه أن يستعيد من الماضي أفضل تلك الأيّام حين كنّا شابَّيْن وواقعَيْن في الغرام، ويُرغم نفسه على تصديق أنّ الأيّام كلها كانت هكذا. ولكنّها لم تكن. لطالما كنتُ امرأةً جشعةً متعلّقةً بالدنيا؛ لم أشعر بالرضا يومًا. وكذلك الآن، مع تقدّمنا في السّنّ، حيث لم تتبقَّ إلا زهور قليلة، لَكَمْ من الجحود الكبير أن تدمّر ما تبقّى في قلب إنسان." سالت الدّموع على خدَّيْها، فأعادت جسدها إلى الخلف، ورفعت عينَيْها باتّجاه السقف. كانت قد توقّفتْ عن الكلام، لأنّ صوتها تلاشى. وها قد عادت للكلام بحزم من جديد. "ولكنّني فعلتُ هذا. يمكن للناس أن يكونوا أحبّاء وأعداء في آن، هل تعرفين. لقد كنّا ... رجلًا وامرأةً تباعدا بعد عناق طويل، وصارا يريان ما فعله كلٌّ منهما للآخر. ربّما لا أملك أن أغفر له على الأذى الذي سبّبتُه أنا له. لعلّ هذا هو السبب. وحين يكون هناك أطفال، تتعرّض المشاعر لتغيّرات طبيعيّة. ولكنْ، حين يبقى الأمر شديد الخصوصيّة ... ثمّة ما يستسلم داخل المرء. ومع تقدّم العُمر، نفقد كل شيء؛ نفقد حتّى القدرة على الحبّ."

"هو لم يفقدها،" قلتُ.

"هو طلب منكِ أن تتحدّثي نيابةً عنه، يا عزيزتي؟ إذنْ، لقد دمّر كلٌّ منّا الآخر حقًا!"

"بالتأكيد لم يطلب منّي أيّ شيء، يا سيّدة مايرا! ولكنّك تقسين عليه، حسنًا، وحينما تكون الأشياء القاسية كثيرة جدًا، سيصبح أمرًا يدعو للرثاء."

"نعم، هو رثاء كبير." ثمّ شدّت جسدها في كرسيّها. "وأفضّل أن

تنقطعي عن زياراتكِ حاليًا، يا نيلي. بدأتُ أظنّ أنّ الشاي يسبّب لي الإزعاج." كانت تبتسم، ولكنّ فمها تكوّر مثل أفعى صغيرة، وقد رأيتُه يتكوّر على هذا النحو منذ سنوات طويلة. "هل تسمحين أن تأخذي أغراضكِ وتغادري، يا سيّدة كيسي؟" قالتْها مع ضحكة، ولكنّها كانت ضحكة مقصودة جدًا.

حينما نهضتُ، راقبتُها بحثًا عن علامة لين أو تراجع، وقلتُ بتذلّل كافٍ: "سامحيني إنْ كنتُ قد قلتُ شيئًا لا ينبغي لي قوله. تعلمين أنّني أحبّكِ كثيرًا."

أحنتْ رأسها الاستبداديّ بسخرية. "بداعٍ من آلامي، عزيزتي السّيّدة كيسي، لن أكون قادرةً على وصول بابي برفقتكِ."

5

وطوال عدّة أيّام من تلك الحادثة، لم أرَ السّيّدة هنشوه على الإطلاق. كنتُ أقابل أوزوالد على العشاء في المطعم كل ليلة، وكان ينقل لي وضعها الصّحّيّ، وكأن لم يحدث شيء. وغالبًا ما كانت فتاة الجريدة قصيرة الشَّعْر تأتي إلى طاولتنا، فنجلس ثلاثتنا، ونتحدّث. كان بوسعي إدراك أنّها كانت مصدر انتعاش كبير له. كانت أسئلتها توقظ سلسلة ذكريات سعيدة، وكان إعجابها الواضح عزيزًا عليه. كانت مايرا، حين أخبرتني أنّه شعر بسعادة كبيرة بعدما عدتُ ودخلتُ إلى حياتهما مجدّدًا على هذا النحو، قد علّقتْ مرّةً: "لطالما كان رجلًا حسّاسًا مع النساء، تعلمين، من النواحي كلها." وقد كان هذا صحيحًا. فقد أحدثتْ تلك الفتاة الساذجة تغييرًا كاملًا في العالم بالنسبة إليه. كان كريمًا كفاية، كي يصبح رقيقًا في توجيه انعدام خبرتها ونهمها الشّديد للحياة. بل وحتّى كان يقرأ "تحقيقاتها الخاصّة"، ويُبيّن لها مواطن السوء ومواطن الجودة فيها. وقد كانت تقبل تصحيحاته بكل سرور، كما قال لي.

منذ أيّام أيّار الأولى؛ بدأت صحّة السّيّدة هنشوه بالتدهور. أخبرها أطباؤها أنّ هناك ورمًا خبيثًا في جسدها قد سيطر كُلّيًا على عضو أساسيّ في جسدها، وأنّها قد لا تعيش حتّى نهاية الشهر. وكانت تعاني من آلام رهيبة من انضغاط أعصاب ظهرها، لذا كانوا يعطونها أدوية منوّمة بجرعات كبيرة. في البداية، كانت هناك ممرّضتان، ولكنّ

مايرا كرهت الممرّضة الليليّة بشدّة، بحيث اضطُررنا لصرفها، وبما أنّ مدرستي كانت على وشك الإغلاق من أجل العطلة الصيفيّة، تناوبتُ مع أوزوالد على مراقبتها ليلاً. كانت تنام بعمق لعدّة ساعات، وتبقى مستيقظةً في ما تبقّى من الليل، تتمتم لنفسها مقاطع طويلة من قصائد شعرائها القدامى.

أبقت مايرا بجانبها الآن صليبًا من الأبنوس، عليه تمثال للمسيح من العاج. كان معلّقًا على الجدار من قبل، وقد افترضتُ أنّها حملته معها إلى كل بيت انتقلت إليه لأنّه هديّة من أحد الأصدقاء. وأحسستُ الآن أنّها تضعه بجانبها، لسبب مختلف. حينما حملتُه من بين يَدَيْها، لأعدّل شراشف السرير، رفعتْ يَدَيْها بسرعة، وقالت: "هاتيه، أرجعيه لي. إنّه لا يعني شيئًا للناس الذين لم يعانوا."

لم تعد تتكلّم كثيرًا بعد أن بدأت هذه المرحلة الأخيرة من مرضها؛ لم تعد تتذمّر أو تشكو، ولكنّ تصرّفاتها مع أوزوالد باتت غريبة وغامضة. كانت تسيطر عليها أوهام؛ وباتت تعزو كلّ الضجيج الذي فوق رأسها لزوجها كُلّيًا. "آه، ها هو ذا يبدأ ضجيجه مجدّدًا،" تقول. "سيدمّرني في نهاية الأمر. آه، فلتدفنوني في الطريق العامّ!"(*) وحينما كان أوزوالد يرفع جسدها، أو يفعل أيّ شيء لها الآن، صارت حريصةً على شكره بنبرة متحفّظة، بل متذلّلة أحيانًا. "ما يدعو إلى المرارة كفايةً هو أنّني مضطرّة إلى قبول المساعدة منكَ – أنتَ الذي أحببتُه كثيرًا،" أسمعها تقول له.

---

*) تتماهى مايرا هنا مع مناجاة الملك رتشرد الثاني (في مسرحيّته)، الفصل الثالث – المشهد الثالث، حين تقتبس عبارته ذاتها.

وعندما طلبتْ منّا إشعال الشموع للإضاءة خلال مناوباتنا الليليّة، وألّا نضيء المصابيح الكهربائيّة أبدًا، لأنّها تكرهها، كانت تقول بنبرة اتّهام موجَّهة إليه، وليست مجرّد فضفضة: "على الأقلّ، دعني أمتْ قرب ضوء الشموع؛ هذا ليس طلبًا كبيرًا أبدًا."

صار الأب فَيْه يأتي يوميًا تقريبًا لزيارتها. كانت زياراته طويلة، وكانت تترقّبها بشدّة. وبالطبع، لم أكن أبقى في الغرفة حين يكون هو هناك، ولكنْ، لو صادفني في الممرّ، كان يوقفني، ليتحدّث إليّ، وفي إحدى المرّات، تابع طريقه في الشارع وهو لا يزال يحادثني عنها. كان شابًا، بوجه نضر وعينَيْن جذّابتَيْن، وقد كان شديد الاهتمام بمايرا. "إنّها امرأة غير عاديّة أبدًا، السّيّدة هنشوه،" قال حين كان يمشي في الشارع برفقتي.

ثمّ أضاف، وهو يبتسم بصبيانيّة: "أتساءل ما إذا لم يكن بعض قدّيسي الكنيسة الأولى يشبهونها كثيرًا. إنّ طبيعتها ليست عصريّةً على الإطلاق، أليس كذلك؟"

خلال تلك الأيّام والليالي التي لم تكن مايرا تتحدّث فيها إلا نادرًا، كان المرء يحسّ أنّ ذهنها مشغول طوال الوقت – بل حتّى إنّه كان نشيطًا إلى درجة خرافيّة، وبين الحين والآخر يلتقط المرء إشارةً عن الأمر الذي كان يشغل ذهنها. في إحدى الليالي حين كنتُ أعطيها الكودائين، طرحتْ عليّ سؤالًا:

"لماذا، بحسب اعتقادكِ، يا نيلي، تكون الشّموع ذات هالة دينيّة بحدّ ذاتها؟ ولكنْ، بالطبع، ليس حينما تكون مغطّاةً بالظلال – أعني لهب الشّمعة. هل يكون هذا لأنّ الكنيسة انطلقت من السراديب، ربّما؟"

وفي وقت آخر، حينما كانت تستلقي مثل تمثال رخاميّ لوقت طويل، قالت بصوت رقيق عقلانيّ: "آه، أيّها الأب فيْه، ليس هذا هو السبب! الدِّيْن يختلف عن أيّ شيء آخر؛ **لأنّ السعي هو التحقُّق في الدِّين.**"

نطقتْ كلمة "السعي" بقوّة كبيرة، وعمق بالغ. بدت وكأنّها تقول إنّه في عمليات البحث الأخرى قد يكون موضوع البحث هو ما يحقّق الرضا، أو قد يكون أمرًا عارضًا صادفه المرء في طريقه؛ ولكنْ، في الدِّين، فإنّ الرغبة بذاتها هي الإنجاز والتّحقُّق، وإنّ السعي أمر مُجزٍ بحدّ ذاته.

ثمّة ليلة بعينها من بين تلك الليالي تبرز في ذاكرتي، بحيث تمثّل تلك الليالي كلّها، حيث كانت هي العبء، وهي التي تروي حكاية كلّ شيء. رأت مايرا كابوسًا سيّئًا جدًا، لذا بقينا أنا وأوزوالد مستيقظَيْن بجانبها. بعد منتصف الليل، عاد إليها هدوؤها. كانت الشّموع متّقدةً كالمعتاد، وثمّة واحدة منها داخل تجويف الجدار، حيث سريرها. من كرسيّي عند النافذة المفتوحة كان بإمكاني رؤية سريرها. كانت راقدةً بلا حراك لأكثر من ساعة، مستلقيةً على ظهرها، وعيناها مغلقتان. ظننتُ أنّها نائمة. كانت المدينة في الخارج ساكنةً مثل سكون الغرفة التي نجلس فيها الآن. بدأت المرأة المريضة تحدّث نفسها، بصوتٍ خفيض لا يعدو همسًا، ولكنْ، بوضوح تامّ؛ صوت بالكاد كان أكثر من تنفّسٍ متّقدٍ ناعم. بدا وكأنّي أسمع روحًا تتكلّم.

"كان بوسعي تحمُّل المعاناة ... كثيرون عانوا ويعانون. ولكنْ، لمَ ينبغي أن يكون الأمر هكذا؟ لا أستحقّ هذا. لقد كنتُ صادقةً في صداقاتي؛ اهتممتُ بإخلاص بالآخرين حين كانوا مرضى ... لمَ يجب أن أموت هكذا، وحيدةً مع عدوّي الحميم؟"

كان أوزوالد جالسًا على الصوفا، وكفّه تظلّل وجهه. نظرتُ إليه برعب، ولكنّه لم يتحرّك، ولم يختلج. أحسستُ أنّ يديّ تبردان وأنّ جبيني يغرق في عَرَق الفزع. لم أسمع يومًا من قبل صوت إنسان ينطق بمثل هذا الحُكم الرهيب على كلّ ما يتمنّاه المرء. وحينما بقيتُ مستيقظة طوال الليل، بعد أن ذهب أوزوالد ليقتنص عدّة ساعات من النوم، صرتُ أهدأ؛ بدأتُ أفهم قليلاً ممّا كانت تعنيه، بدأتُ أحسّ ماهيّة الوضع الذي هي فيه. أحيانًا، تميل صاحبات الطبائع العنيفة كطبيعتها إلى الانقلاب على أنفسهنّ ... ضدّ أنفسهنّ وضدّ كلّ ما ومَنْ يحببنَ.



6

في اليوم التالي، طلبت السّيّدة هنشوه أن تُعطى القربان المقدّس. وبعد أن تناولتْهُ بدت أهدأ جسديًا وذهنيًا. وفي عصر اليوم التالي، طلبت من هنشوه أن يذهب إلى مكتبه، وترجّتْني كي أغادرها وأتركها تنام. أمّا الممرّضة، فقد صرفناها بناء على طلب [مايرا] في ذلك اليوم. طلبت أن تُرعى شؤونها على يد إحدى الأخوات الممرّضات في الكنيسة من الآن فصاعدًا، وسيجلبها الأب فَيْه يوم غد.

توجّهتُ إلى غرفتي، ناويةً أن أعود إليها بعد ساعة، ولكنْ، ما إنْ استلقيتُ في سريري حتّى غبتُ في نوم عميق. كان الظلام قد حلّ حين سمعتُ هنشوه يطرق على بابي، ويناديني. وحالما فتحتُ الباب، قال بنبرة يائسة: "لقد رحلتْ، يا نيلي، لقد رحلتْ!"

ظننتُ أنّه يعني أنّها قد ماتت. فهُرعتُ معه على طول الممرّ إلى غرفتها. كانت خالية. أشار إلى السرير الخاوي. "ألا ترين؟ لقد رحلتْ، يعلم الله إلى أين!"

"ولكنْ، كيف تمكّنتْ من الخروج؟ امرأة بمثل مرضها؟ لا بدّ أنّها في مكان ما داخل الفندق."

"لقد بحثتُ في أنحاء الفندق كلها. أنتِ لا تعرفينها، يا نيلي. بإمكانها فعل ما يحلو لها حين ترغب. انظري إلى هذا."

على المكتب ثمّة ورقة من دفتر ملاحظات، وعليها كتابة مُخربَشة بقلم رصاص: "عزيزي أوزوالد: لقد حانت ساعتي. لا تلحقْ بي. أودّ لو أبقى وحيدة. نيلي تعرف مكان المال من أجل تكلفة القدّاس." وهذا كان كلّ شيء. ولم يكن ثمّة توقيع.

هُرعنا إلى قسم الشرطة. أرسل رئيس المخفر ساعيًا إلى رجال الشرطة المنتشرين في دوريّات خارجيّة، لينبّههم كي يكونوا في حالة استنفار بشأن امرأة في حالة انفعال، غادرت مسكنها وهي مريضة، وفي حالة هذيان. ثمّ ذهبنا إلى الأب فَيْه. "لقد كانت الكنيسة في بالها لزمن طويل،" قال هنشوه. "كان أحد أوهامها أنّني أبعدتُها من الكنيسة. ولم أقصد فعل هذا على الإطلاق."

لم يكن القسّ الشّابّ يعرف شيئًا. كان مهمومًا، وعرض أن يساعدنا في بحثنا، ولكنّنا ظننّا أنّ من الأفضل أن يبقى في الكنيسة في حال خطر لها القدوم إليه.

حينما عدنا إلى الفندق، كانت الساعة قد تجاوزت الحادية عشرة. قال أوزوالد إنّه عاجز عن البقاء في الداخل؛ لا بدّ أن أبقى أنا هنا على أهبة الاستعداد، ولكنّه سيعود لمساعدة الشرطة.

بعد أن غادر، بدأتُ بتفتيش غرفة السّيّدة هنشوه. كانت قد ارتدت معطفها السّميك وقبّعتها الفرو، مع أنّ الليلة كانت دافئة. وحينما اكتشفتُ أنّ البطّانيّتَيْن النمساويّتَيْن ليستا موجودتَيْن، أحسستُ أنّني ربّما أعرف أين ذهبت. هل ينبغي أن أحاول ملاقاة أوزوالد في قسم الشرطة؟ جلستُ لأُقلّب السؤال في ذهني. بدا لي أنّ من الأفضل

إتاحة الفرصة لها لملاقاة نهايتها المحتومة على النّحو الذي تختاره هي. ينبغي لهذا الحنين الذي كان قويًا بما يكفي لانتزاع جسدها العليل، وجرّه، ليخرج إلى العالم من جديد أن يُحقّق مراده.

في الساعة الخامسة صباحًا، عاد هنشوه مع ضابط شرطة وحوذيّ زنجيّ. كان الحوذيّ قد جاء إلى القسم، وقال لهم إنّه في الساعة السادسة من مساء الأمس أوقفتْه سيّدة، ذراعاها مثقلتان بالأغطية، عند باب الفندق، وطلبت منه إيصالها إلى مرسى القوارب. وحينما كانا يقتربان من المرسى، قالت إنّها لم تُرد التوقّف هناك، بل أرادت الانطلاق أبعد باتّجاه الشاطئ، وأعطتْهُ اتّجاهات واضحة. وصلا إلى الجرف الذي أشارت إليه. فساعدها على النّزول من العربة، ووضع لها البُسط التي أحضرتْها معها تحت الشجرة، فمنحتْه قطعةً ذهبيّةً من فئة العشرة دولارات، وصرفتْه. احتجّ، لأنّ الأجر كانت أكثر ممّا يستحقّ بكثير، ولأنّه كان يخشى من أن يقع في ورطة، لو تركها وحيدة هناك. ولكنّها أخبرتْهُ أنّ صديقةً ستقابلها هناك، وأنّ الأمر على ما يرام، وما من داعٍ للقلق. وقد كانت السّيّدة، على حدّ قوله، تمتلك قدرة إقناع لطيفة جدًا. وعندما عاد إلى الإسطبل، ليُبيت حصانه، سمع أنّ الشرطة تبحث عن امرأة فقدت صوابها، فأحسّ بالخوف. اتّجه إلى منزله، وحكى الأمر لزوجته التي أرسلتْه، كي يبلّغ عن الأمر في قسم الشرطة.

أخَذَنا الحوذيّ بعربته إلى الرأس البحريّ، وأصرّ ضابط الشرطة على متابعة طريقنا. وجدناها وقد لفّت جسدها ببطانيّتيها، مستندةً إلى جذع شجرة الأرز، بمواجهة البحر. كان رأسها قد سقط إلى الأمام؛ وكان الصّليب الأبنوسيّ بين يَدَيْها. لا بدّ من أنّها ماتت بسلام، وبلا ألم.

كانت لديّ الأسباب كلّها كي أوقن بأنّها بقيت حيّة إلى أن شهدت بزوغ الفجر. وحينما كنّا نجلس بجوار جثمانها، في انتظار وصول الحانوتيّ والأب فيْه، أخبرتُ أوزوالد عمّا كانت قد قالتْه لي عن توقها إلى رؤية بزوغ الصّباح على البحر، فخفّفتْ هذه الأُمنيّة من حزنه.

7

بالرغم من أنّها عادت بحماس شديد إلى الإيمان الذي كانت عليه في طفولتها، إلا أنّ مايرا هنشوه لم تغيّر صيغة وصيّتها أبدًا، حيث طلبت حرق جثمانها، ودفن الرماد "في بقعةٍ منعزلة، وغير مطروقة في الجبال، أو ذرّها في البحر."

وبعد أن انتهى كلّ شيء، وأُقفل على رمادها في صندوق معدنيّ صغير، ناداني هنشوه إلى غرفتها ذات صباح، حيث كان يحزم أغراضها، وقال لي إنّه سيسافر إلى ألاسكا.

"أوه، ولكنْ، ليس كي أبحث عن ثروتي،" قال لي مبتسمًا. "تلك مهمّة الشّباب. ولكنّ شركة البواخر تضمّ مكانًا شاغرًا لي في مكتبهم هناك. لطالما رغبتُ في الذهاب إلى هناك، والآن لم يعد لديّ شيء يكبحني عن هذا. سيذهب هذا الصندوق الصغير المسكين معي؛ سأذرّ رمادها في بقعةٍ ما من تلك المياه الشاسعة. وأريد منكِ أن تقبلي هذا التّذكار." ووضع بين يَدَيّ عِقدًا من الأميثست المنقوش، كانت مايرا ترتديه في الليلة التي قابلتُها فيها للمرّة الأولى.

"ويا نيلي – " وقف أمامي عاقدًا ذراعَيْه أمام صدره، وهي الوقفة ذاتها التي كان قد وقفها خلف كرسيّ موجسكا في ضوء القمر في ليلة

رأس السنة تلك؛ يقف مثل تمثال، أو خفير، قلتُ لنفسي آنذاك، من دون أن أتمكّن من تحديد ما شعرتُ به حيال وقفته تلك؛ ولكنّني أدركتُ الآن أنّها تعني وفاءً راسخًا عَصيًّا على الانكسار ... بل يكاد يكون شبابًا راسخًا عَصيًّا على الانكسار. "نيلي،" قال، "لا أريدكِ أن تتذكّريها كما كانت عليه هنا. بل تذكّريها كما كانت حين كنتِ معنا في ساحة ماديسن، حينما كانت على شخصيّتها الحقيقيّة، وحين كنّا سعداء. نعم، أسعد من ما تكون عليه مصائر معظم البشر الفانين. وبعد أن أصابها البلاء، باتت ذكرياتها عن تلك الأيّام مظلمة. كانت الحياة قاسيةً عليها، ولكنّها كانت متألّقةً أيضًا؛ كان لديها تلك الصداقات الجميلة. وبالطبع، فإنّها تصبح خارج حدود المنطق كُلّيًا حين تُصاب بالغَيْرة. تكاد شكوكها في بعض الأحيان - تكون غريبة عجيبة." ابتسم ومسح على جبينه بأنامله، كما لو كانت ذكريات غَيْرتها ما تزال مُبهجة، وما تزال مُحيِّرة. "ولكنْ، تلك هي مولي درسكول بالضبط! أفضّل أن أكون مخموشًا منها، كما اعتادت هي القول، على أن أكون مُغنَّجًا من أيّة امرأة أخرى عرفتُها في حياتي. في هذه السنوات الأخيرة، كان يخطر لي أنّني أعتني بأمّ الفتاة التي هربت معها. لم يتمكّن أيُّ شيء من انتزاع تلك الفتاة منّي. كانت مخلوقةً جامحةً رائعة، يا نيلي. أتمنّى لو أنكِ كنتِ تعرفينها آنذاك."

بعد عدّة سنوات من توديعي له، فارق أوزوالد هنشوه الحياة في ألاسكا. لا يزال عِقد الأميثست بحوزتي، ولكنّه فأل سيّئ. لو أخرجْتُهُ من علبته، وارتديتُه، أحسُّ طوال الأُمسيّة بقبضةٍ جليديّة تعتصر قلبي. وأحيانًا، حينما أشهد البداية البرّاقة لقصّة حبّ، حينما أرى شعورًا اعتياديًا يتسامى، ليصبح جمالًا بقوّة الخيال، والسّماحة، وشجاعة

الشّباب المتّقدة، يتناهى إلى مسمعي من جديد تلك الشكوى الغريبة التي نطقتْها امرأة محتضرة في هدأة الليل، مثل اعتراف للرّوح: "لمَ يجب أن أموت هكذا، وحيدةً مع عدوّي الحميم؟!"



«في رواية عدوّي الحميم ... كلّ فصل موجَز يشكّل بوحًا عن شيء جديد وغير متوقّع. إنّه كتاب هادئ وعنيف. ما من كلمة مهدورة أو زائدة. ... تُدرك الكاتبة الحكاية التي تحكيها كليًا، من بدايتها إلى نهايتها»

أ. س. بيات، روائيّة وناقدة إنكليزيّة

«ستّ روايات مُكرَّسة [خلال أقل من عقدين] رقمٌ استثنائيٌّ بالنسبة إلى أيّ كاتب أميركيّ حديث؛ لا يخطر لي إلا فوكنر كنظير لويلا كاذر في هذا السّياق، بما أنّه ألّف ستّ روايات خالدة، نُشرت كلّها في سنواته العظيمة بين عامي ١٩٢٩-١٩٣٩»

هارولد بلوم، ناقد أميركيّ



ISBN 978-88-32201-29-1
9 788832 201291
المتوسط